شمالى أفريقيـة والوندال

٤٣٩ — ٥٣٤ م

---

١ — التحـديد الجغرافى لشمالى أفريقيـة وبلاد المغرب — السكان الأصليون : البربر وأصولهم — فلسطين هى دار البربر الأصليـة — المؤرخون المسلمون وأقسام البربر — الاستعمار الفينيقى لشمالى أفريقية — الاستعمار الرومانى — التقسيم الإدارى لشمالى أفريقية الرومانى — أهمية ولاية أفريقية Africa — أثر الحضـارة الفينقية — موقف الرومان من البربر الوطنيين والممالك البربرية الوطنية — الأفارقة — انتشار الحضارة الرومانية — بعض قادة الفكر فى أفريقية الرومانية — سـوء الأحوال الاقتصادية — الانقسـام الدينى : (الدوناتيون Donatists) .

٢ — الوندال الجرمان وأصولهم وأقسـامهم — تحركاتهم خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين — اعتراف الرومان بهم « معـاهدين Foederati » دخولهم غالة (٤٠٦) — دخولهم أسـبانيا (٤٠٩) — اضطراب أحـوال الامبراطورية الرومانية فى الغرب — مدى مسئولية بونيفاس Bonifacius فى دعوة الوندال لغزو أفريقية (٤٢٨) — شخصية ملك الونـدال جزريك Gaisricus : « بسمارك القرن الخامس الميلادى » .

٣ — عبور الوندال إلى أفريقية (٤٢٩) وقضاؤهم على السيطرة الرومانية — كفاح بونيفـاس الأخير ضـد الوندال — الاعتراف بالوندال فى أفريقيـة فى معاهدة ٤٣٥ م — الاستيلاء على قرطاجنة (٤٣٩) واتخاذها عاصمة لمملـكة الوندال ؛ سيطرة الوندال البحرية ، رسالة أيودكسيا Eudoxia وتخريب الوندال لمدينة روما (٤٥٥) .

٤ — حكومة الوندال فى شمالى أفريقية — نظم الحكم والإدارة ، التوزيع الأقطاعى Sortes Vandalorum واسترقاق الرعايا . سياسة الوندال الدينية .

٥ — كفاح الرومان ضد دولة الوندال — تحالف الشرق والغرب ضد الوندال — نهاية الأمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦) — وفاة جزريك (٤٧٧) واضطراب أحوال مملكة الوندال من بعده — يوستانيوس والقضاء على دولة الوندال ٥٣٣ / ٥٣٤ م — أسباب سقوط الوندال — تراثهم — الوندال والتاريخ — أحوال شمالى أفريقية منذ زوال الوندال حتى بداية الفتح العربى الإسلامى .

١

لم يكن هناك اسم معين يطلق ، فى التاريخ القديم ، على المساحة الشاسعة الواقعة فى شمالى أفريقية الغربى ، وهى الممتدة من غربى مصر شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن البحر الأبيض شمالاً إلى الصحراء الكبرى من ناحية الجنوب ، غير أن كتاب الغرب أطلقوا على هذه المنطقة اسم « بلاد البربر » Barbary أو La Berbérie أو The Coast of Barbary [(١)] ، على حين أطلق الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى على هذه المنطقة اسم « بلادالمغرب » أو « جزيرة الغرب » أو « مغرب » [(٢)] ، ويعنون بذلك

(١) Thomson, J. O., History of Ancient Geography, (Camgr, 1948), 1. 259; Gsell, S., Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, (Paris,1921), T.I., PP.1,2.

(٢) البلاذرى : فتح البلدان ص ٢٧٠ ، تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ١٥٤ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٥٥ ، ابن الوردى (نشره وترجمه إلى اللاتينية S. Hylander) لندن ١٨٢٣) ص ٥ ؛ Gsell. op. cit. 66. 1- 23; .

جميع شمالى أفريقيـة غربى مصر ، بل أن كلمة « المغرب » ،عند العرب كانت تضم الأندلس كذلك ، فى أول الأمر ، إلا أنه بعد أن استقر المسلمون بالقيروانه (٦٧٠ م) ، أطلقوا اسم « أفريقية » على المنطقـة التى تضم غربى طرابلس وتونس[١] ، وصارت كلمة المغرب لا تدل على غير شمـالى أفريقية الغربى فى نهاية الأمر[٢] ؛ على أن المغرب فى عرف أهله هو الممتد من غربى برقة ، أى أن برقة خارجة عنه ، إلى المحيط الأطلسى ، بمعنى أنه يشمل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش[٣] . والذى نعنيه فى هذا البحث «بشمالى أفريقية» هو المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً ، وهى التى طوتها السيادة الوندالية ، وقامت فيها مملـكة الوندال ، وإن لم تـكن سيادة الوندال فعالة على بعض أجزاء هذه المنطقة ، ولاسيما المغرب الأقصى . وهذه المنطقة هى بعض أملاك الرومان فى شمالى أفريقية[٤] . إذ كان الرومان قد بسطوا سيادتهم على جميع الساحل الأفريقى الشمالى المطل على البحر الأبيض ؛ بمعنى آخر إن المنطقة التى نعنيها ، تشمل ما هو ، حالياً ، بعض المملـكة الليبية المتحدة وجمهوريتى تونس والجزائر والأطراف الشرقية للمملـكة المغربية ؛ وهذه المنطقة هى بعض بلاد البربر ، كما ذكر القدماء ، وهى أيضاً « أفريقية الصغرى Africa Minor » ، كما عرفها ريتر

---

(١) من المعروف أن الفينيقيين قديماً كانوا أطلقوا اسم أفرى Aphri على أهل البلاد الذين أقاموا حول مدينتهم طاقة Utica – أى المدينة القديمة – وحول عاصمتهم قرطاجنة – أى المدينة الجديدة ، وقد أخذ اليونان عنهم هذه التسمية ، وأطلق الرومان كلمة « أفريقية » على ولاية أفريقية القنصلية وتشمل قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا (أنظر الدكتور حسين مؤنس : فتح العـرب للمغرب – مصر ١٩٤٧ – ص ١ – ٢ .

(٢) لوبون (ج.) : حضارة العرب – ترجمة زعيتر – ص ٢٤٣ .

(٣) الناصرى (أبو العباس) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – (تحقيق ونشر ولدى المؤلف جعفر الناصرى ومحمد الناصرى – الدار البيضاء ١٩٥٤) حـ ١ ص ٦٣ – ٦٤ ابن خلدون : تاريخه حـ ٦ ص ١٠١ – ١٠٣ .

(٤) أنظر الخريطة رقم – ١ –

K. Ritter ؛ والمغرب عامة من الناحية الجيولوجية والجغرافية ، يكون وحدة. وكان أغزر إمطاراً وأكثر خصوبة مما هو عليه الآن ، ولا سيما فيما هو تونس الحالية[١] ، ويشبه سواحل جنوبي أوربا ، وهو حلقة اتصال بين قارتي أفريقية وأوربا ، وكثرت النقلة منه وإليه ، كما كثر التأثير المتبادل[٢] . وهناك أوصاف تفصيلية كثيرة وافية ، ذكرها المؤرخون القدماء ، لهذه المنطقة ، أمثال : هيكاتيوس وهيرودوت وسترابو وبليني وبطليموس وبول أوروز وغيرهم[٣] ، وهذا بالإضافة إلى ما كتبه جغرافيو العرب ومؤرخوهم[٤] .

* * *

وسكان هـذه البقعة الأصليون هم « البربر » الذين يختلفون عن السكان المقيمين فى جنوبى الصحراء ، جنوبهم ، وكانوا قديماً ينتشرون على طول ساحل أفريقية الشمالى ، من غربى مصر حتى المحيط الأطلسى ، حتى أطلق على هذه البقعة الفسيحة اسم « بلاد البربر Barbary »[٥] وقد أقاموا فى تلك المنطقة منذ الزمن السحيق ، وعرفهم المصريون القدماء تحت أسماء مختلفة منها : الليبو Lebu والمشواشين Mashuasha وتماحو Tamahu وتحنو Tehenu وكما كا Kahaka

---

(١) Deanesly, M., A History of Early Med. Europe, (Lond., 1956), P. 75.

(٢) Alimen, The Prehistory of Africa, PP. 1, 69.

(٣) Roget, R., Le Maroc chez les auteurs anciens (Paris, 1924), PP. 9 - 40;
أنظر كذلك :
أبو الفداء : كتاب تقويم البلدان ص ١ ، ٤ ؛ ابن الوردى ص ٤ ؛ ابن أياس : نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ص ٢٢ ؛ البشارى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢١٥ — ٢٣١ ؛ الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٢ .

(٤) Yver, G. "Africa" (Encycl. of Islam)

(٥) Encyclopedia Brittanica, "Art. Berbers"

وظهرت هذه الأسماء فى النقوش الفرعونية التى ترجع إلى حوالى عام ١٧٠٠ ، ١٣٠٠ ق . م(١) .

وأصل الاسم واشتقاقه مشكوك فيه. أرجعهم البعض إلى الكلمة الإغريقية الدالة على معنى البربرة الوحشية وأشار إليهم الإغريق بهذا المصطلح أولا، وتبعهم الرومان فى ذلك (Barbarus) ؛ كذلك أشار إليهم الأغريق بكلمة تدل على معنى البداوة (Nomads) ، وهكذا اتبعهم الرومان(٢) . ويقال إن العرب هم الذين أطلقوا عليهم كلمة « البربر » ؛ وفسر المؤرخون العرب هذه اللفظة تفسيراً لغوياً ، فقالوا : سموا بالبربر لأن رطانتهم غير مفهومة لغيرهم ، والبربرة فى لغة العرب اختلاط أصوات غير مفهومة .

* * *

وأشار المؤرخون والجغرافيون من كتاب الغرب ، إلى البربر ، بأسماء مختلفة، منها : النساموينون Nasamones والبسيليون Psylli ، وهؤلاء أقاموا فى برقة وطرابلس ، والجرامانثيون Garamantes ويعيشون فى البادية ، والملسيكيون Makyles & Maxices ، وأقام هؤلاء فى ساحل تونس ، أما الموزولاميون Musulami والنوميديون Numidiae فأقاموا فى شرق المغرب ، وأما الجتيوليون Geatuli فكان مقرهم فى المرتفعات وعلى حافات الصحراء ، وأخيراً المغاربة Mauri الذين ينتشرون فى المغرب الأوسط والأقصى(٣) .

وهناك تسميات أخرى ، أطلقها الرومان والبيزنطيون ، على البربر ، من

---

(١) Ibid.

(٢) Soames, J. The Coast of Barbary, Lod., 1938), P.. 18 ; Encycl. Br. Art. "Berbers".

(٣) Basset, R. Berbers (Encycl. of Islam), Vol. I.

حيث تقسيمهم إلى شعوب ، بحسب الأقاليم التى أقاموا فيها[١] . والملاحظ أن الرومان ، بصفة خاصة ، أطلقوا على البربر عامة : اسم الجيتوليين والنوميديين والموريين (المغاربة) ، وعنوا بذلك جميع البربر ؛ وهذه الأسماء مشتقة أصلاً من الكلمة الأغريقية التى تدل على معنى البداوة[٢] .

ولعل هناك صلة بين كلمة « مور » Mauri (المغاربة) ، وبين الكلمة العبرية « ماهور » Mahur بمعنى غربى Western ؛ وهذه أطلقها الرومان فى العصر الكلاسيكى ، وعمموها على جميع القبائل المقيمة بشمالى غربى أفريقية ، وسموا المقاطعات الشمالية الغربية فى أفريقية باسم مرطانيا Mauritania أى بلاد المغاربة[٣] . وظهر هذا الاسم لأول مرة خلال الحرب اليوجرثية (١١٠ — ١٠٦ ق.م ، نسبة إلى يوجرثا Jugurtha البربرى ملك موريتانيا ، وهى الحرب التى وقعت بين البربر والرومان فى تلك الفترة[٤] .

والخلاصة ، أن جميع سكان شمالى أفريقية الغربى الأصليين ، من البربر ، مهما اختلفت الأسماء التى أطلقت عليهم ويمكن القول بصفة عامة بأنه من لم يكن زنجياً فى هذه المنطقة ، فهو بربرى ، وذلك قبل الفتح العربى الإسلامى[٥] . والصفات الجنسية التى اشتهر بها البربر ، كما صورهم المصريون القدماء ، أنهم ينتمون إلى الجنس الأبيض بل الأشقر ، ولا تزال الشقرة بادية فى بعض ذراريهم إلى الآن ، وعموماً البربر جنس أبيض ، رغم وجود اختلافات محلية بين سكان القرى المختلفة ، نتيجة لعوامل المناخ والاختلاط بغيرهم ؛ ولذا كان ما قصده اليونان من كلمة مورى Mauri ، هى ، « الرجال السود » .

---

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٥ — ٦ .

(٢) راجع ماسبق .

(٣) Cary, A History of Rome, P. 303

(٤) Roget, op. cit., P. 22 ; Cary, op. cit. PP. 303-306.

(٥) لوبون : حضارة العرب ص ٢٤٤ .

وقد وصفهم ابن خلدون وصفاً شاملاً فقال :

« وهذا الجيل من الآدميين ، هم سكان المغرب القديم ، ملأُوا البسائط والجبال ... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ، ومن الشعر والوبر ، ويظعن أهل العز منهم والغلبة ، لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة ، لايجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخيل فى الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأظعان ، فى نتاج الأبل وظلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم الصوف ، يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤسهم فى الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها بالحلاق ، ولغتهم من الرطانة الأعجمية ، متميزة بنوعها ، وهى التى اختصوا من أجلها بهذا الاسم ... »[1] .

والسائد الراجح ، أن فلسطين هى دار البربر الأصلية التى نزحوا منها ، واتجهوا إلى الغرب ، وكان يحكمهم فى الزمن السحيق الملك جالوت — الوارد خبره فى القرآن الكريم[2] . فلما قتله داود عليه السلام ، هاجر البربر إلى الغرب ، وتفرقوا فى نواحيه ؛ ووقعت هجرتان كبيرتان للبربر من آسيا إلى شمالى أفريقية ، أولاها : كما يقول صاحب عقد الجمان ، وقعت عندما انهزم فريق من بنى حام أمام بنى سام ، فهاجر المنهزمون إلى بلاد المغرب ، حيث تناسلوا

---

(١) ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ١٩ .

(٢) وردت قصة جالوت وقومه والحرب بينه وبين داود عليه السلام فى سورة البقرة من آية : ٢٤٦ إلى نهاية آية : ٢٥١ . وهناك شرح واف لتفسير هذه الآيات فى كتب التفسير ومنها :

الإمام محمد عبده : تفسير القرآن الكريم (مصر ١٣٥٠ هـ) ج ٢ ص ٤٧٦ — ٤٩٢ ؛ تفسير النسفى المعروف بإسم « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » ج ١ ص ٩٤ — ٩٥ ؛ تفسير البيضاوى ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٣ ؛ تفسير الجلالين ج ١ ص ٣٠ — ٣١ الخ ....

« واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى تخوم السودان » ثم جاء فريق آخر من بنى حام من فلسطين زمن داود عليه السلام . وهم ، كما يقول الطبرى والكلبى وابن حزم وابن عبد البر صاحب كتاب التمهيد ، وابن خلدون ، أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم ، نزحوا إلى بلاد المغرب ، فنزلت زنانة ومغيلة وخريسة وفرسنة الجبال ، على حين نزلت لواتة أرض برقة ، ونزلت هوارة مدينة إياس ، وهكذا احتلت كل قبيلة منطقة خاصة بها[1] . ومنهم من « تمجس ومنهم من تهود ، ومنهم من تنصر ، وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان » ، وظلوا على ذلك حتى جاء الإسلام[2] .

والبربر ، كما قسمهم جغرافيو العرب ومؤرخوهم ، فرعان هما : البرانسى والبتر ، ويذكر ابن خلدون أن البرانس نسبة إلى جدهم برنس ، والبتر نسبة إلى جدهم مادغيس الذى كان يلقب بالأبتر[3] ؛ والراجح أن البرانس نسبة إلى نوع من الزى كانوا يلبسونه وهو البرنس ، والبتر لأنهم كانوا لا يلبسون ذلك اللباس ، والبرانس سكان المدن المتحضرون ، والبتر سكان البادية[4] .

والبرانس عشر قبائل : أوربه — صنهاجه — كتامه — مصموده — عجيه — أوريغه — أرداجه — لمطه — هكسوره — جزولة . ولكل قبيلة من هذه القبائل فروع متعددة ، وأكبر هذه القبائل صنهاجة ، حتى قيل أنهم مقدار الثلث من البربر ، ومن صنهاجة بنو زيرى والملثمون وكتامة .

وأقسام البتر : خريسه — نفوسه — أداسه — لواته ؛ ومن جزيه مكناسه وزناته ، ومن زناته جراوه وهم قوم الكاهنة « داهيا » صاحبة جبل أوراس التى أوقعت بجيش حسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان ،

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩١ ؛ الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٥٧ .
(٢) الاستقصا ج ١ ص ٥٣ ؛ ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٩٣ — ٩٦ .
(٣) الاستقصا ١ ج ١ ص ٥٧ .
(٤) عبد الحميد العبادى : موجز تاريخ الأندلس .

ومن زناته كذلك بنو خرز المغراويون ، ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ، وبنو يفرن وبنو زيان وبنو مرين . ولكل قبيلة عمائر وبطون وأفخاذ لا حصر لها(١) .

ابتدأ نفوذ الرومان يمتد إلى ساحل أفريقية الشمالى منذ العهد الجمهورى ، وذلك على أثر الحروب الطاحنة التى دارت بينهم وبين الفينقيين ، وانتهت بإزالة ملك الفينقيين من شمالى أفريقية بعد أن مكث نحو سبعمائة عام(٢) .

وتركزت أملاك الرومان فى شمالى أفريقية ، زمن الأمبراطور أغسطس (ت ١٤ م) ، فى مملكتى نوميديا Numedia وموريتانيا Mauritania ، فلما أعاد الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) تنظيم الأمبراطورية الرومانية، قسم هذه الأملاك إلى سبعة أقسام إدارية لتسهل إدارتها وحماية الأمن فيها ، وتمتد من الشرق إلى الغرب : طرابلس Tripolitana ، بيزاكينا Byzacena ، وأفريقية القنصلية أو زوجتانا Africa Proconsularis or Zeugitana ، ونوميديا ، وستيفنسس Sitifensis ، وقيصرية Caesarienses ، وطنجه Mauritania Tingitana(٣) .

---

(١) الاستقصا ص ٥٧ — ٥٨ ؛ ابن خرداذبة ص ٩٠ ؛ الأدريسى ص ٥٧ ؛ ابن خلدون : تاريخه جـ ٦ ص ٨٩ — ١١٤ .

(٢) موطن الفينقيين الأصلى هو سواحل الشام وفلسطين ، وهم عرب ، ضربوا بسهم كبير فى التجارة والملاحة البحرية ، ويرجع وصولهم إلى سواحل أفريقية الشمالية الغربية إلى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ؛ أقاموا المراكز التجارية على طول السواحل التى وصل نفوذهم إليها ، وبنوا قرطاجنة خلال القرن التاسع قبل الميلاد ، وكانت لهم إمبراطورية بحرية كبرى ، كما كان أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض (أنظر :

Gsell, S., Hitsoire ancienne de l'Afrique du Nord (Paris, 1921) Ts. I, II.

أنظر :

Soames, op. cit., PP. 28-29 ; Ch. André, J., op. cit., PP. 63-127 ; Mommsen, T., The Hist. of Rome Vol. III, P. 321 ; Bury, J., A Hist. of the Roman Empire from the Foundation to the death of Aurelius (27 B.C.-180 A.D.) PP. 89-90, 239 ; Salmon, E.T., A Hist. of the Roman Empire, P. 106 ; Roget, op. cit., PP. 17-40 ; (الزواوى ص ١٢ — ١٥ ؛ ابن خلدون جـ ٢ ص ٤٠٢

(٣) Hodgkin, T., Italy & her Invaders, Vol. II, PP. 232-3

يتضح من هذا التقسيم ، أن كلمة أفريقية أو ولاية « أفريقية الأصلية » Africa Vetus ، كانت تعنى عند الرومان أحد هذه الأقسام السبعة ، وتشمل جغرافياً ما هو تونس الحالية تقريباً(١) ؛ ومع ذلك استعمل هذا المصطلح أحياناً استعمالاً عاماً ، وأطلق ليدل على كل شمالى أفريقية(٢) وذلك لأهمية هذا القسم ، إذ كان مركز الحكم لجميع شمالى أفريقية الرومانى ، بل كان نقطة البدء فى بسط السيطرة الرومانية ، فمنه امتد الرومان وتوسعوا شرقاً وغرباً(٣) .

ويدل المصطلح « أفريقية الرومانية » على جميع المنطقة الساحلية الممتدة من غربى برقة شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ، باستثناء ولاية طنجة المطلة على المحيط ، فهذه كانت تتبع أسبانيا والغال من الناحية الإدارية ، ولم تكن ضمن أفريقية الرومانية(٤) ، ويرجع السبب فى ذلك ، لعوامل جغرافية ، تلخص فى صعوبة المواصلات الداخلية بينها وبين جيرانها فى الشرق من أملاك الرومان ، فهناك منطقة صحراوية يبلغ طولها أكثر من مائتى ميل ، تفصلها عن أقرب جار لها من الشرق ، حتى أنه لم تكن هناك مواصلات برية تصل بين طنجة Tingis فى المغرب ، وبين قيصرية Caesarea ، فى شرقى موريتانيا(٥) ؛ ومن ثم رؤى أن ترتبط ولاية طنجة أو تلحق بالولايات الرومانية المتحضرة وشمالها عبر المضيق(٦) ومن ناحية أخرى ، لهذا العامل الجغرافى أثره فى تفسير خطورة المغاربة الذين كانوا كثيرى الاغارة على الرعايا الرومان فى بايتيكا Baetica

---

(١) Thomson, op. cit., P. 256.

(٢) Fage, J.D., An Atlas of African Hist., PP. 6-7

(٣) Soames, PP. 30-38.

(٤) Deanesy, M., op. cit., P. 75.

(٥) Bury, J., op. cit., P. 89.

(٦) Hodgkin, T. op. cit., P. 233.

(الأندلس فيما بعد) ، أكثر من خطورتهم على رومان أفريقية . ونظراً لاستهداف بايتيكا لهذا الخطر العابر من أفريقية ، وصفها شاعر لاتيني معاصر للأمبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) بأنها : Trucibus obnexia Mauris[1] .

ومن المحتمل أن ولاية طنجة ظلت بنجوة من غزو الوندال وتخريبهم ، ولو أن الوندال حصنوا مدينة سوتا[2] ؛ بمعنى آخر ، بقيت ولاية طنجة جزءاً من الأمبراطورية الرومانية ، خلال السيادة الوندالية على شمالى أفريقية[3] .

وكانت ولاية موريتانيا (مرطانية) تشغل نحو ثلاثة أرباع مساحة الجزائر الحالية[4] ، ورغم وجود مزارع القمح الكبيرة بها ، فى السهول الواقعة بين الجبال وشاطىء البحر الأبيض ، إلا أنها خلت من المدن الكبيرة الهامة ، باستثناء المدينة التجارية الكبرى « قيصرية » . صارت موريتانيا فيما بعد جزءاً من مملكة الوندال[5] .

أما ولاية طرابلس Tripolitana ، الواقعة فى أقصى الجانب الشرقى من أفريقية الرومانية ، فيرجع تسميتها بهذا الاسم (طرابلس) إلى الثلاث مدن الرئيسية وهى : ليبتس الكبرى Leptis Magna — وهى لبدة الحالية — وأوئيا Oea — وهى مدينة طرابلس الحالية — وسبراتا Sabrata — صبره المعاصرة — وكلمة طرابلس معناها الثلاث مدن ؛ و يسميها العرب «أطرابلس[6]» . ومركز هذه الولاية مدينة طرابلس ، واشتهرت فى القرن الثالث الميلادى لأنها

---

(١) Bury, J. op. cit., P. 89.

(٢) أنظر ما يلى والخريطة رقم ٣ .

(٣) Hodgkin, op. cit., P. 233.

(٤) Lot, Les Invasions, G. 45 ; Hodgkin, P. 234.

(٥) أنظر ما يلى والخريطة رقم ٣ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٦ .

كانت من المراكز المسيحية الهامة ، وقد منحها دقلديانوس لقب «ولاية» وليس لولاية طرابلس أهمية فى نظر المؤرخ الرومانى سوى أنها كانت مسقط رأس أحد أباطرتها ، وهو الأمبراطور س. ساويرس Septimus Severus (١٩٣ — ٢١١ م) ، فهو من مواليد مدينة لبدة ، ومن أصل بربرى ورومانى[١] .

والمعروف أن الرومان كثروا وازدحموا فى ولاية أفريقيـة الأصلية : Africa Vetus ، وكذلك فى جارتها بيزاكينا ، فضلاً عن نوميديا التى عرفت كذلك باسم « أفريقية الجديدة » منذ زمن قيصر (ت ٤٤ ق. م) ، فهذه المنطقة الوسطى من شمالى أفريقية الرومانى ، تكون قلب الأملاك الرومانية وأهمها ولذلك قامت معظم المدن الرومانية العامرة فيها[٢] ، وتتميز بالخصب والثراء عما سواها ، ولا سيما ولاية أفريقية ، وهى الولاية التى تعد أغنى بقعة فى شمالى أفريقية وبالتالى أكثرها ازدحاماً[٣] . وفضلاً عن شهرتها فى إنتـاج القمح ، فهى مشهورة كذلك بزراعـة الفواكه ، يقول الشـاعر هوراس Horas (٦٥ — ٢٧ ق م) . فى إحـدى أناشيده متغنيا بخصبها[٤] : "Imperio Fertilus Africae" . ورغم أن نبيذ أفريقيـة دون نبيذ أسبانيا وإيطاليا ، إلا أنها غنيـة فى محصول القمح ، وأسهمت مع مصر وصقليـة فى إمداد روما (ومن بعدها القسطنطينية) بالقمح ، بل إنها تعتبر الولاية الهامة الثانية بعد مصر فى القارة السوداء ، من حيث كونها مخزن القمح للرومان[٥] ؛ وتمتاز بالنشاط

---

(١) ولد الإمبراطور ســاويرس عام ١٤٦ ، وفى عهده بلغت أفريقية الرومانية ذروة حضارتها وتطورها .
أنظر : Graham, A., Roman Africa (Lond., 1902), PP. 196-208 ; Soames, op. cit., PP. 42-43 ; الزواوى ص ٣٤ .

(٢) Fage, op. cit., PP. 6-7.

(٣) Pirenne, H., A Hist. of Europe from the Invasion to the 16th century, P. 34 : Thomson, op. cit., P. 250.

(٤) الشاعر كوينتوس صورافيوس فلاكوس من شـعراء عصر اغسطس : Quintus Horatius Flaccus وأنظر : Bury, op. cit., p. 92

(٥) Salmon, op. cit., P. 106.

والحركة ، وفيها إلى الآن ، بقايا دور التمثيل والحمامات وأقواس النصر ، وقد جعلت هذه الولاية « سناتورية » مسلحة ، أى يترك أمر الرقابة عليها إلى السناتور الرومانى(١) .

أقام الرومان حضارتهم فى شمالى أفريقية على أسس فينيقية ، أى على أسس سامية ، إذ كانت صبغة هذه المنطقة القديمة فينيقية إغريقية ، مع غلبة العنصر الفينيقى ، وذلك على عكس جزيرة صقلية التى كانت ذات صبغة إغريقية فينيقية مع بروز العنصر الإغريقى فيها ، لذلك أرست روما حضارتها وتقاليدها على قواعد فينيقية ، فأبقت على الدساتير الفينيقية فى المدن ، كما أبقت على نظام المقاطعات cantons فى غالة (فرنسا الحديثة ؛ وهناك تشابه وتقارب بين هذه النظم سواء فى أفريقية أم فى غالة ، وبين ما هو كائن فى إيطاليا ، بحيث كان النقل ميسوراً وسريعاً(٢) .

ولذلك نجد أن مدينة قرطاجنة ، وهى التى قضت عليها السياسة القصيرة

---

(٥) يلقب حاكم الولاية السناتورية بلقب « برو قنصل Pro-Consul أى «نائب القنصل» ويبقى عادة فى منصبه مدة سنة واحدة ، ولكن أصبح من الممكن بعد عهد أغسطس (ت ١٤ م) أن يظل الحاكم لمدة ست سنوات . غير أن أفريقية وآسيا ، من بين الولايات السناتورية ، كان الحاكم فيها يلقب « بالقنصل السابق » 'ex-consul' ، ويظل الواحد منهم فى منصبه سنتين أو أكثر من سنتين فى بعض الأحيان . ومن الشروط الواجب توافرها فيمن يلى حكم هذه الولاية ، ألا يعين إلا بعد مضى عشر سنوات على القنصل بعد انتهائه من وظيفة القنصلية ، أما حكام الولايات السناتورية الأخرى ، فيلقب الواحد منهم بكلمة « البريتور السابق » ex-Praetor ، ولا يعين فى منصبه بهذه الولايات إلا بعد مضى خمس سنوات على تركه الوظيفة البريتورية . والولايات السناتورية عند وفاة أغسطس هى : افريقية Africa ، Cyrene ، أكايا Achaea ، ومقدونيا (أكايا ومقدونيا ولايات إمبراطورية فى الفترة ما بين ١٥ إلى ٤٤ م) ، بايتيكا Baetica (الأندلس) ناربوننسس Narbonensis ، وذلك فى الفترة ما بين ٢٢ ق م ؛ غالة البعيدة Gallia Narbonensis ، وآسيا Asia : بثينيا Bithynia التى أصبحت ولاية إمبراطورية زمن تراجان المتوفى عام ١١٧ م ؛ وقبرص وكريت ، وصقلية :

Chapot, V., Le Monde Roman, PP. 436-467 : Salmon, op. cit., PP. 76-77)

(٢) Bury, op. cit., P. 91.

النظر للسناتور الجمهورى[١] ، قد أعيدت لها أهميتها وازدهارها فى عهد الإمبراطورية منذ قيصر ، حتى صارت عاصمة أفريقية الرومانية ، كما كانت من قبل عاصمة أفريقية الفينيقية ، بل غدت أعظم وأثرى المدن فى غربى أوربا . ومن أجل عظمتها ورخائها وثرائها ، عرفت باسم « قرطاجنة السعيدة Felix Kartago »،ويقال إن هذه العبارة كانت تنقش على العملة الإمبراطورية، وإلى جنوبها ميناؤها الشهيرة كوثون Cothon الذى فتح للتجارة العالمية ، وبها الحمامات والسوق والمسرح ، وكل مظاهر المدينة الرومانية .

وفى قرطاجنة خمسة معابد فينيقية قديمة ، وهى لآلهة أسيوية ، وقد حولت هذه المعابد للآلهة الرومانية ، زمن الإمبراطوية ، وهى الإله أيسكولابيوس Aesculapius إله الطب ، وزحل Satturn إله الزراعة وأبو المشترى ، والآلهة يونو Juno زوجة جوبيتر وملكة السماء وراعية الزواج فى الأساطير الرومانية ، وهرقل ، وعطارد Mercury رسول الآلهة وإله التجارة والكسب والفصاحة والبلاغة ؛ ونظراً لجمال معبد الآلهة الأخير ، عرفت قرطاجنة فى القرن السادس الميلادى ، « باسم مدينة عطارد » ، كما عرف لسانها الممتد داخل البحر باسم « رأس عطارد[٢] » . وربما دمر بعض المعابد الفينيقية القديمة خلال حماس المسيحية فى القرن الرابع الميلادى[٣] .

ومن المدن الشهيرة فى ولاية أفريقية ، أوتيكا Utica ، وهى منافسة قديمة لمدينة قرطاجنة ، ظلت تحسدها وتحقد عليها ولا سيا عندما أعيدت إليها شهرتها ومكانتها التاريخية ؛ كذلك اشتهرت مدينة كيرتا Crita فى نوميديا وتقع على نهر

---

(١) Gsell, S., T. III, PP. 336-407.

(٢) Gsell, op. cit., I. II, PP. 1-37, 93-112 ; Deanesly, op. cit., P. 75 ; Bury, op. cit., P. 91.

(٣) Davis, N., Carthage & her Remains (Lond., 1861), PP. 1-2, 35 ; Hodgkin, op. cit. 239-240.

إمبساجا ، وهى المعروفة حالياً باسم « قسطنطينية »(١) وفى موريتانيا ، تجد من المدن الشهيرة كاوبيا Clupea وهيبوديار كيتوس Hippo Diarrkytos (٢).

ولما كانت موريتانيا متخلفة فى الأخذ بأهداب الحضارة الرومانية، فقد بذلت جهوداً كبيرة ، من لدن أغسطس ، من أجل بناء المدن الرومانية على الساحل ، لتكون مراكز لنشر الحضارة الرومانية .

و بجانب المدن الفينيقية العريقة ، والمدن التى بنيت على النسق الرومانى ، هناك مدن وطنية بربرية ، تخضع مباشرة لسلطة الحاكم الرومانى العام ، وأحياناً يعين لها حكام رومانيون محليون(٣) ، على أن هناك عدداً كبيراً من القبائل البربرية الوطنية . تخضع لرؤسائها (reguli) الوطنيين ، ولكن تحت إشراف الحكام الرومان ، وقد عد منها بلينى Pliny نحو ست وعشرين قبيلة ، على حين ذكر بطليموس نحو تسع وثلاثين منها(٤) . والواقع أن القبائل البربرية كانت منقسمة متناحرة ، لكنها تتحد أحياناً ضد العدو الأجنبى ، فيما يشبه كونفدرالية مفككة Loose Confederation ، ولذلك لم ينجحوا فى إقامة دولة ثابتة قوية ، رغم أن البربر يشتهرون فى التاريخ بأنهم جنس محارب ، وأنهم لم يخضعوا لأى فاتح خضوعاً تاماً ، فكان الولد منهم إذا بلغ السادسة عشرة من عمره ، سمح له بحمل السلاح و يظل كذلك حتى سن الستين .

وحدث خلال فجر الفتوح الرومانية فى شمالى إفريقية ، وخلال الصراع بين روما وقرطاجنه ، أن تكونت مملكة نوميديا البربرية بمساعدة الرومان ، وشملت قبائل البربر المنتشرين من نهر مولويا Muluya غرباً إلى خلجان سريتس Syrtis

---

(١) أنظر الخريطة .

(٢) Bury, op. cit., P. 91.

(٣) Bury, op. cit., P. 91.

(٤) Thomson, op. cit., P. 256.

شرقاً ، غير أن هـذه المملكة اختفت عام ٤٦ ق . م . كذلك قامت مملكة موريتانيا البربرية زمن أغسطس (١٧ ق .م) كانت خاضعة لنفوذ الرومان ، ثم لم تلبث أن زالت وأصبحت موريتانيا ولاية رومانية فى ٧ عام ٤٢ م [١] .

غير أن الحدود الجنوبية لأفريقية الرومانية ، ظلت مضطربة غير ثابتـة ، نظراً لقيام ممالك وطنية أخرى بربرية ، وكانت هـذه الممالك كثيرة الثورات والخروج على الاستعمار الرومانى ، منذ فجر الأمبراطورية الرومانية .

من هذه الممالك : مملكة الجرامنتين، وتقع جنوبى خليج طرابلس(سيريتس) فيما هو فزان[٢] . وربما كان هؤلاء الوطنيون هم الذين أشير إليهم فى بعض الـكتب العربية باسم « القرماطيين » الذين انتشروا فى الصحراء حتى جنوبى فزان ، وكانوا يتعاملون بالملح[٣] . وهذه التسمية راجعة إلى مدينة « جرما » عاصمة فزان القديمة ، ويقول الأدريسى « ومدينة جرمة بأرض فزان ، و بينها و بين أودغشت نحو ٢٥ مرحلة »[٤] . ولم تزل آثار هذه المدينة باقية إلى اليوم ، وربما كانت النسبة كذلك إلى « جرمانة » وهى قبيلة بربرية من بنى ماصلت من بطون لواته ، ثم دخلها شىء من التحريف[٥] . وهناك مملكة الجيتوليين ، وتقع جنوبى غربى ولاية أفريقية ، و يعرف هذا القبيل من البربر بقوة المراس ، حتى أنهم لم يقهروا ، وقد صور الشاعر فرجيـل P. Virgilius Maro (٧٠ — ١٩ ق . م) خطرهم بقوله :

"Hinc Gaetulae urbes, genus insuperable bello. Et Numediae infreni cingunt et inhospita Syrtis"(٦) .

---

(١) Encycl. of Islam. Art. 'Berbers'.

(٢) Davidson, B., Old Africa Rediscovered, PP. 41, 73.

(٣) البشارى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ .

(٤) الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٣٢ — ٣٥ .

(٥) الزاواوى : ص ٣٣ — ٣٤ ، ٧٥ .

(٦) Bury, P. 90.

وكذلك قامت مملكة الترانستا جنسس Transtagensis ومملكة للوزولاميين Musulami ، وتقع كلتاهما جنوبى شرقى ولاية أفريقية ، ولعل هذا النفر الأخير هم الذين أشار إليهم اليعقوبى باسم « المصاليين » وهم فرع من البربر والأفارقة ، استقروا فى طرابلس واشتهرت مملكتهم بكثرة الإغارة على أملاك الرومان ، وكانت دائمة الحركة والنقلة بحثاً عن المرعى والمغنم ، ولذا كانت أكثر من غيرها إقلاقاً للرومان ، حتى سلك الرومان نحوها مسالك مختلفة ، من ذلك أنهم جندوا عدداً كبيراً من أبنائها فى الفرق الاحتياطية للامدادات(١) .

كان على الرومان أن يعملوا على حماية أملاكهم دائماً من خطر هذه الممالك الوطنية المتاخمة لهم ، وهذا ما حملهم على تسليح ولاية أفريقية السناتورية تسليحاً كافياً ، وركزوا فيها معظم الحاميات الرومانية(٢) . وكانت مهمة الدفاع شاقة عسيرة ، نظراً لوعورة المواصلات البرية بين الأملاك الرومانية فى شمالى أفريقية ، وتكاد الحرب بين الرومان والبربر تكون سجالا ، منذ فجر سيطرتهم على الساحل .

من هذه الحروب ، ماشنه القائد الرومانى بالبوس L. Corn. Balbus عام ١٩ ق . م ضد الجرامنتيين فى طرابلس ، وكللت حملته بالنجاح(٣) . وتلك الحملة التى قادها سلبكيوس كويرنيوس P. Sulpicius Quirinius ضد قبائل المارمرية Marmaride فى برقة قبل عام ١٢ ق . م(٤) . كذلك شن القائد لنتولس C.C. Lentulus حرباً ضد قبائل الجيتوليين عام ٥م ؛ ومنذ عام ٦م ، شعرت إدارة أفريقية الرومانية ببعض الأمن والهدوء ، حتى اكتفى الرومان بوضع

---

(١) Salmon, P. 106 ; Encyl. of Islam, A. 'Berbers'

(٢) Lot, Les Invasions, PP. 45-46 ; Salmon, P. 112.

(٣) Bury, P. 90.

(٤) Salmon, P. 106.

فرقة حزبية واحدة فى ولاية أفريقية ، وعرفت هـذه الفرقة باسم ؛ أوغسطا الثالثة ؛ ورغم هذا لم تنقطع الغزوات البربرية[١] .

ولم يكف زعماء البربر الوطنيون عن مهاجمة الرومان ، حتى لاحت الفرصة ، فتكررت ثوراتهم وهجماتهم زمن الأباطرة دوميتيان Domitian (٨١ ـ ٩٦ م) وهادريان (١٧ — ٣٩) وكومودوس (٦١ — ١٩٢ م) . ولما ضعف سلطان روما قرب نهاية القرن الثالث الميلادى ، ازدادت ثورات البربر كثرة وعنفاً ، واشتهر إثنان من زعمائهم بكثرة تحديهما للاستعمار الرومانى وهمـا : فرماس Firmas ، وذلك فى الفترة الواقعة بين ٣٧٢م ، ٣٧٤م، والثانى جلدون Gildon (٣٩٨ م) ، وكان عداء البربر للرومان من العوامل التى ساعدت الوندال على انتزاع شمالى أفريقية من السيطرة الرومانية فى القرن الخامس الميلادى[٢] .

وكان بجانب البربر والمستوطنين الرومان ، فى شمالى أفريقيـة ، نفر كبير عرف باسم « الأفارقة » وهؤلاء خليط من الأجانب اللاتين المستوطنين الذين طال مكثهم بالبلاد ، حتى أصبحوا أفريقيين ، وبقايا الشعب القرطاجنى القديم ومزارعى البيزنطيين وصناعهم ، بالإضافة إلى نفر من البربر ممن استقر ودخل فى طاعة الرومان والبيزنطيين[٣].

وخلال سيطرة الرومان على شمالى أفريقية ، أخذت الحضارة الرومانية واللغة اللاتينية تنتشر تدريجياً إذا كانت لغة البربر الوطنية لا تزال قائمة فى المناطق المتطرفة، والتى لم تصل إليها السيادة الرومانية ، كما أن اللغة الفينيقية هى التى كانت منتشرة

---

(١) Salmon, PP. 106, 130 ; Ch.-André, PP. 138-142, 193-212.

(٢) Basset, op. cit..

(٣) ابن خرداذبة : المسـالك والممالك ص ٩١ — ٩٢ ؛ مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٤ — ٥ ، وله كذلك : ثورات البربر فى أفريقيـة والأندلس (بحث نشر بمجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — المجلد العاشر — الجزء الأول — مايو ١٩٤٨) ص ١٤٣— ٢٠٦ .

على طول الساحل ، فإن الرومان وقفوا من هذه اللغات الوطنية موقفهم التقليدى نحو اللغـات المحلية ، كما فعلوا بالنسبة للغة الأيبرية فى أسبانيا ، واللغة السكلتية فى الغال ، أى تركوا هذه اللغات وشأنها ، ولـكنهم اعتمدوا على اللغة الفينيقية كلغة للتفاهم والاتصال فى أفريقية الرومانية ، نظراً لانتشار هـذه اللغة على طول الساحل من طرابلس شرقاً إلى طنجة غرباً ، وظلت اللغة الفينيقية هى المستعملة حتى ظهور المسيحية ، بل امتدت إلى القرن الأول الميلادى حتى زمن الإمبراطور بتيريوس (١٤ — ٣٧م) ، وليس هناك ما يشير إلى بقاء استخدام اللغة الفينيقية رسمياً بعد عهد بتيريوس(١) .

ولما رفضت روما الاعتراف باللغة الفينيقية كلغة رسمية للتخاطب بين الحـكومة والرعايا ، على عكس موقفها من اللغـة الإغريقية التى اعترفت بها لغة رسمية فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ، وقررت أن أفريقية وصقلية تابعتان للغرب اللاتينى اضطر الوطنيون فى شمالى أفريقية إلى تعلم اللغة اللاتينية واستخدامها فى أعمالهم الرسمية مع الحـكومة، على حين ظلوا يستخدمون الفينيقية فى معاملاتهم الداخلية المحلية ، وهكذا أخذت اللغة اللاتينية تحل تدريجياً محل اللغة الفينيقية ، أولا فى الحياة الرسمية ، ثم فى الحياة الاجتماعية ؛ وفى نهاية القرن الرابع الميلادى صار الوضع النسبى لهاتين اللغتين ، يشبه وضع اللغة الإنجليزية بجانب اللغة الولشية Welsh ولـكن تحتم على رجال الدين فى أفريقية أن يجيدوا اللغـة الفينيقية ، على الأقل فى المناطق الريفية التى قد يعينون للعمل فيها(٢) .

وليس من شك فى أنه خلال القرن الخامس الميلادى كانت اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية تضرب جذورها بعمق فى التربة الأفريقية . ومن المعروف فى تاريخ الـكنيسة ، أنه خلال العصور الأولى المسيحية ، برز زعماء روحانيون من أهل الولاية الأفريقية ، وصاروا أئمة فى اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية فضلا

---

(١) Hodgkin, op. cit., P. 238.

(٢) Ibid.

عن الثقافة الدينية ، بل هنـاك مشرعون أفريقيون أمثال سالفيوس يوليانوس Salvius Julianus — جـد الإمبراطور ديديوس سـالفوس يوليانوس D.S. Julianus الذى جاء فيما بعد (ولد حوالى ١٣٣ م وتوفى ١٩٣م) — ؛ وقد اختار الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٩ م) ، هذا المشرع الأفريقى ، لجمع القانون وتبويبه ، فأنجز عمله فى عام ١٢٩[١] م . ومن أعلام زعماء الـكنيسة الأفريقيين من اللاتين : ترتوليان (١٥٠ — ١٢٢م) Quintus Septenus Tertulianus أعظم كتاب الـكنيسـة القدماء ، لـكنه فى المنزلة الثانية بعد القديس أوغسطين ، وكيبريان Caecilius Cyprian القرطاجنى ، وهو الذى تولى أسقفية قرطـاجنة فى الفترة ما بين ٢٤٨ و٢٥٨ م واشتغل أستاذاً للبلاغة من قبل[٢] وهناك أسـتاذ البلاغة الآخر أرنوبيوس النوميدى Arnobius ، اشتهر عـام ٣٠٠ م . كذلك لأكتـانتيوس Lactantius Firmianus ، (٢٦٠ — ٣٤٠) وهو من كتاب الـكنيسة القدماء ، وأطلق عليه المعاصرون لقب « شيشرون المسيحى » وتنتهى قائمة هؤلاء العظماء الإفريقيين ، بالشخصيتين البارزتين وهما : مارتيانوس كابلا M. Capella والقديس أورليوس أوغسطين St. Aurelius Augustinus ؛ وربما كان الأخير أعظم شخصية مسيحية أنجبتها أفريقية فى فجر العصور الوسطى[٣] .

ألف مارتيانوس رسالة فى علم اللغات ، فى الفترة ما بين استيلاء الأريك القوطى على روما (٤١٠) وبين فتح جزريك الوندالى أفريقيـة (٤٢٩) ، ويحتمل أن هذه الرسالة هى التى حددت عدد الفنون الحرة بسبعة وهى : النحو والمنطق والبلاغة والهندسة والحساب والفلك والموسيقى[٤] .

(١) Salmon, P. 310.

(٢) Bury, P. 91 ; Deanesly, P. 75.

(٣) Rand, E.K., Founders of the Middle Ages, (New York, 1957), PP. 251-266 ; Hodgkin, PP. 338-339.

(٤) Deanesly, P. 86 ; Deanesly, PP. 86-87.

أما أوغسطين الهيباوى (٣٥٤ — ٤٣٠م) ، فقد درس فى أفريقة النحو والأدب اللاتينى وكذلك البلاغة ، واشتغل أستاذا للبلاغة فى ميلان ، حيث تأثر بالأسقف العظيم أمبروز Ambrose ، صاحب الموقف الشهير مع الأمبراطور تيودسيوس الكبير ، كما تأثر بالأفلاطونية الحديثة Neoplatoniem ، وسمع لأول وهلة ، وهو فى ميلان ، بحياة النساك التى يحياها الرهبان المصريون ، ولاسيما الراهب أنطون ، واضع أسس الرهبانية الانعزالية ؛ ومن ثم ، عزم على العودة إلى أفريقية ليقيم نوعا من الحياة الرهبانية الاجتماعية ، ونفذ مشروعه عام ٣٨٨م ، وعين قسيسا فى كتدرائية هيبورجيوس ، وولى أسقفيتها عام ٣٩٦م على أثر وفاة أسقفها السابق فالريوس Valerius ، وظل على ذلك حتى توفى خلال حصار الوندال لمدينته عام ٤٣٠م . وكان أوغسطين يعرف الفينيقية ،وهو الذى أصر على أن يلم القسس بهذه اللغة ، وكان مثالا للحياة النقية الطاهرة تشبها بالحواريين ، وأمد الكنائس الأخرى برجال الدين الذين دربهم وعلمهم ، فعاش هؤلاء فى كنائسهم الجديدة على طريقته . ووضع قواعد regula فى أصول الديرية ، كما وضع قواعد لأصول حياة الراهبات 'regula Sororum' ، وكانت أخته رئيسة لجماعة مشابهة من النساء الناسكات ، ولما جاء الوندال قضوا على هذا النظام فى أفريقية ، فانتقل إلى أوربا مع تعديل يقتضيه جو أوربا ، كزيادة وجبتى الطعام اليوميةاللتين كانتا تكفيان الراهب فى اليوم ، ولكنهما لم تعود تكفيان فى جو أوربا.

ثم إن الكثير من الحركات الديرية مثل البريمونستراتية Praemon-stratensian والداوية Tempeliers والدومينيكانية ، قد أخذت أصولها من قاعدة أوغسطين ، ولهذا أثره فى مدنية العصور الوسطى ، لأن الأديرة كانت تضم مدارسا للتعليم ، وأدت ما نسميه اليوم بالخدمات الاجتماعية من تمريض ورعاية الطفولة والعواجز ، ونحو ذلك . ولذلك إذا عد القديس بندكت أبا الديرية الغربية ، فإن القديس أوغسطين يعد أبا للحياة الدينية المستقيمة لرجال الدين .

وأما كتابه عن « مدينة الله » De Civitate Dei ، فهو يساعد على تصوير جو التفكير الأوربى خلال العصور الوسطى ، ويتكون من ٢٢ جزءاً ، كتب فى الفترة ما بين ٤١٣ و ٤٢٦ م ، وطبع كل جزء على حدة ، ورد فيه أوغسطين على ما شاع فى أوربا يومئذ بأن سقوط روما على يد الأريك (٤١٠) دليل على غضب الله ، وأن ذلك منذر بانتهاء العالم ، وفى نظر الوثنيين كان ذلك إشارة لانتقام الآلة الوثنية القديمة بسبب اعتناق الأباطرة للديانة المسيحية ، وكان الأمبراطور يوليان الصابىء قد مات قبل أن يبدأ أوغسطين فى تأليف رسالته بأربعين سنة ، وظل أهل الريف يعتقدون فى قيمة الطقوس الوثنية القديمة .

أراد أوغسطين أن يوضح فى رسالته أمرين : أولهما أن الآلهة الوثنية لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا دخل لها فى الخير أو الشر أو العدالة ، وأن الأمبراطورية الوثنية لا تفلح إذا افتقرت إلى العدالة ، والثانى أن روما مدينة أرضية : 'Civitas terrena' ، وهى زائلة ؛ ولكن مدينة الله C. Dei فهى خالدة باقية (١) .

وهكذا أنجبت أفريقية أعلاماً فى معظم الميادين ، نظراً لأن التربة الأفريقية صالحة للبذر والنماء ، بحيث أن الرومان لم يفعلوا أكثر من أنهم فرضوا إسمهم ولغتهم على ماهو قائم فعلاً ، كما يقول العالم الجرمانى ممسن Mommsen(٢) . والواقع أن الحضارة الرومانية فى أفريقية ، قد بنيت على تراث الحضارة الفينيقية القديمة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وإلى الأفريقيين كذلك ، يرجع الفضل فى إخراج الجزء الأكبر من الترجمة اللاتينية الأولى للانجيل ، وهى المعروفة باسم إيتالا Itala ؛ ولقد ظل قادة الفكر

---

(١) Courcelle, P., Histoire Litteraire des Grandes Invasions Germaniques, (Paris, 1948), PP. 49-55 ; Soannes, op. cit., PP. 46-64 ; Ch.-Andre, op. cit, PP. 219-230 ; Rand, E.K., op. cit.' PP. 251-271.
فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (القسم الأول ترجمة زيادة والعرينى) ص ٢٤

(٢) Hodgkin, op. cit., PP. 235-236.

فى القسطنطينية يعتقـدون ، حتى بعد غزو الوندال بقرن من الزمان ، أن أهل الولايات الرومانية فى أفريقية ، يتكلمون اللغة اللاتينية بطلاقة أكثر من سكان روما نفسها ؛ وظلت البلاغة اللاتينية تدرس على نطاق واسع فى ولايات أفريقية ، مما يدل على مدى تقـدم الحضارة الرومانية فيها ، ومع ذلك لم يبرز شاعر يشار إليه بالبنان فى ميدان الإنتاج اللاتينى الأفريقى ، فى رأى المؤرخ ممسن(١) .

*

على أن أحوال أفريقية الرومانية الاقتصادية قد ساءت خلال القرن الرابع الميلادى ، نتيجة لـكثرة المصادرات التى توالت منذ القرن الأول الميلادى ، ولاسيما زمن نيرون (٥٤ — ٦٨ م) ، وزمن هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣ م) ، وكثرة تكوين الضياع الأمبراطورية Latifundia ؛ واقترن قيام هذه الضياع بعملية تحويل الفلاحين إلى أرقاء زراعيين للعمل فيها ، تحت إشراف موظفين فى غاية القسوة والعسف ؛ كذلك أضحى نظام الضرائب قاسياً لا يحتمل(٢) .

ومن الناحية الدينيـة ، اشتهرت البيئة الأفريقية بكثرة الآراء اللاهوتية ، والتعصب المذهبى ، وساد فى أفريقية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، مذهب « الدوناتية » Donatism ؛ ظهر هـذا المذهب فى مطالع القرن الرابع الميلادى واستمر لمدة تربو على قرن من الزمان ، رغم ما تعرض له أصحابه من ألوان الاضطهاد والمطاردة ، وانتشر فى نوميديا وموريتانيا ، أكثر من غيرهما من أملاك الرومان .

قام مذهب الدوناتية ، أصلا ، نتيجة لجدل محلى حول تعيين أحد الأساقفة فى منصبه ، وعما إذا كان جديراً بمنصبه أم لا ؛ ثم تطور الجـدل فتناول بعض

---

(١) Ibid, P. 239.

(٢) Salmon, op. cit., P. 309 ; Ch.-André, PP. 148-166, 193 ; Hodgkin, PP. 236-237.

المسائل المتعلقة بطبيعة الكنيسة ووظائفها الأصلية . اختلف الرأى بصدد رسم الأسقف كايكليان Caecilian فى أسقفية قرطاجنة عام ٣١١ م ، فقد رسمه فيلكس Felix أسقف ابتونجا Aptunga دون انتخاب عام . احتج أساقفة نوميديا على طريقة التعيين فضلا عن عدم لياقة كايكليان لمنصبه ، و يضاف إلى إلى ذلك أن كايكليان متهم بالخيانة تزعم حركةالمعارضة سكندوس Secundus رئيس أساقفة نوميديا ، وقام على رأس ٧٠ أسقفاً وتوجه إلى قرطاجنة وعزل كايكليان وحرمه من الكنيسة وعين بدلاً منه ، فانقسمت الكنيسة فى شمالى أفريقية إلى حزبين متناحرين ، وطلب كل حزب تدخل الأمبراطور قسطنطين الأكبر ، وتجاهلوا المبدأ القائل بعدم تدخل الأمبراطور فى شئون الكنيسة : ‘Quid Imperatori cum Ecclesia’، فأمر قسطنطين بعقد مجمع دينى ، أقر صحة تعيين كايكليان ، وأدان المعارضين ولا سيا زعيمهم الذى اشتهر فى ذلك الوقت وهو مايورينوس Majorinus ، الذى دفعته حماسته وتعصبه إلى إعادة تعميد المسيحيين وإعادة رسم الأساقفة الذين ناصروا خصومهم أولا . ثم جاء فى زعامة المعارضين شخصية قوية ، هى شخصية دوناتوس العظيم : Donatus Magnus ، ويحتمل أن اسمه هو الذى أطلق على هذه الجماعة ؛ أصدر الأمبراطور قسطنطين قراراً بحرمان الدوناتيين من الكنيسة إذا لم يعدلوا عن آرائهم ، واستهدفوا بعد ذلك إلى الاضطهاد(١) .

والملاحظ أن مذهب الدوناتية ، ليس هرطقة أو بدعة ، ولم يؤد إلى قيام تعاليم جديدة ، أو نزاع حول العقيدة ، ولكنه حركة لمقاومة التطور العلمانى الذى كانت تسير فيه الكنيسه ، مما يؤدى إلى تحويلها من مجتمع لأشخاص مقدسين إلى مجتمع لطائفة مضطربة مختلفة إلا أنهم كانوا ينكرون صحة التعميد إذا تم على يد قسيس ارتكب خطيئه من قبل(٢) وكان الدوناتيون أكثرية فى مدينة

(١) Encyclopedia of Religion & Ethics Art. "Donatists".

(٢) Villari, P. The Barbarian Invasion of Italy (Lond., 1902), PP. 93-95. فشر (نفسه) ص ٩ حاشية (١) .

هيبو حتى أنهم قطعوا الخبز عن الكاثوليك ، ولم يضعفهم سوى مقاومة الدولة لهم ومناقشات القديس أوغسطين المفحمة . وزاد فى إضعافهم مافعلوه فى عام ٣٩٠ م عندما عقدوا مجمعاً دينياً قرروا فيه إعدام العالم النحوى الشهير تيكونيوس Tychonius لأنه اعترف بوجود قديسين بين الكاثوليك ، أدى هذا الحادث إلى وقوع انقسام بين صفوفهم . وفى عام ٤١١ م عقد القديس أوغسطين مجلساً للمناظرة بين الكاثوليك والدوناتيين ، حضره ٢٨٦ أسقفاً من الكاثوليك ، ٢٧٩ أسقفاً من الدوناتيين ، لكن المحاولة لم تحسم الخلاف .

صدرت تشريعات إمبراطورية لاضطهاد الدوناتيين عام ٤١٥ م زمن الإمبراطور هوزيوس ، حرمت عليهم عقد الاجتماعات ، وتضمنت مجموعة قوانين تيودسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) تشريعات ضدهم فحددت المادة ٥٤ الغرامات التى يدفعها المتهم بالدوناتية ، وتدرجت هذه الغرامات من مبلغ يعادل ٨٠٠٠ جنيه استرلينى إلى ٢٥ جنيهاً وذلك بحسب مركز المتهم الاجتماعى ؛ كذلك حرم عليهم بيع وشراء وتوريث العقارات ، ودخول الأماكن العامة ، ومصادرة كنائسهم وأعضاؤها الكاثوليك(١) .

وهكذا كانت الكراهية على أشدها بين صفوف المسيحين الرومان فى أفريقية الرومانية عند دخول الوندال ، مما سهل مشروع الوندال الأفريقى .

— ٢ —

الوندال فريق من الجرمان الشرقيين الذين أقاموا بصفة عامة خلال القرن الثانى الميلادى ، شرقى نهر الألب ، Albis ، وانتشروا فى المنطقة الفسيحة بين نهرى الألب والفستولا و بين البحر البلطى والبحر الأسود .

---

(١) Encycl. of Rel. & Ethics, Art. "Donatists"; Hodgkin, PP. 267-8;
بينز : الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة مؤنس وزميله) ص ١٠٦
C. Med H·· (Sh.), I, PP. 14-30; Ch.-André, PP. 213-18;

والمعروف منذ القرن الرابع الميلادى أن الجرمان عامة انقسموا إلى ثلاثة أقسام كبرى هى: الشرقيون والغربيون والإسكندناويون؛ وعلى حين بقى الإسكندناويون فى بلادهم الشمالية ، حيث تفرعت عنهم الأمم الحالية فى السويد والنرويج والدانمارك ، ارتحل أشقاؤهم من الشرقيين والغربيين ، وزحفوا على أوربا ، حيث تكونت منهم الدول الأوربية الحديثة(١) .

واشتهر الشرقيون بصفة خاصة ، بكثرة استعدادهم عن غيرهم للنقلة وتغيير مساكنهم بحثاً عن أراضى أغنى وأخصب ، وهم الذين حطموا الإمبراطورية الرومانية الغربية ، قرب نهاية القرن الخامس الميلادى(٢) .

ويدعى الوندال ، كغيرهم من الشعوب القديمة ، أنهم ينتسبون إلى أصول مقدسة ، وجدهم الإلهى هو الإله هرمينو Hermino ابن الإله مانوس Manus ; ابن الإله تويستو Twisto (٣) . وكتب مؤرخو اللاتين اسم الوندال بأشكال مختلفة منها : V andali — Vanduli — Vandilü — Vandili أما مؤرخوا الأغريق فقد أشاروا إليهم بلفظتى : Bandeloi, Bandiloi (٤) . ويقال أن كلمة الوندال ، مشتقة أصلاً من الفعل الألمانى Wendeln بمعنى: يتجول

(١) Barg, M. (C. Med· H.), Vol. I, PP. 183-185.

Hubert, H., Les Germains, PP. 15-32 ; Karsten, T.E., Les Anciens Germains, PP. 123-28 ; Lot, F., Les Invasions Germaniques, PP. 30-32 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 38-39 ;

فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور العرينى ١ ص ١٦ .

(٢) طرخان : نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب – ٤٧٦ م (بحث نشر بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة بالعدد التذكارى للمرحوم الأستاذ شفيق غربال – ١٩٦٢) ؛
Painter, S., History of the Middle Ages, PP. 18-20

(٣) تاكيتوس والشعوب الجرمانية (ترجمة وشرح الدكتور إبراهيم طرخان – مصر ١٩٥٩) ص ٤٨ ؛ Lot, op. cit., PP. 31-32.

(٤) Gautier, E.F., Gensric,s ;Roi des Vannoles, P. 91.

أو يرحل[١] . وهم فرعان : الأسـديون Asdingi والسيليون Silingae ؛ ويهمنا الفرع الأول بصفة خاصة ، لأنه الفرع الذى ينتمى إليه الملك جزريك ، مؤسس دولة الوندال الجرمانية فى شمالى أفريقية الرومانى ، كما أن القوم الذين قادهم جزريك واستقر بهم المقام فى شمالى أفريقيـة ، هم من الفرع الأسدى . أما المجموعة السيلية فلم تر أفريقية ، وإلى هـذه المجموعة الأخيرة ينتسب إقليم سيليسيا ، لإقامتهم فيه فترة من الزمن ، ولعل هذا هو الأثر التاريخى الوحيد الباقى لهذا الفرع ، وهناك من يقول أن سيليسيا مشتق من إسم العناصر الهيلية أو الأيلسية Elysii or Helisii ولـكن النسبة إلى الفرع السيلى أرجح[٢] .

على أن السيليين والأسديين[٣] ، لا يتميزون عن بعضهم البعض ،فـكلاهما من الوندال،وإنما هذه التسمية راجعة إلى اسم الأسرة الحاكمة التى اشتهرت فى كل فرع ، وينتسب الملك جزريك إلى أسم الأسرة الأسدية ، كما انتسب ملوك القوط الغربيين إلى الأسرة البالطية Balthings وملوك القوط الشرقيين إلى الأسرة الأمالية Amalings وملوك الفرنجة الأوائل إلى ميروفنش Merovich ، ويقال أن أسلاف الوندال القدماء هم الهاربون Harii أو الأريين Arii [٣] .

سكن الوندال بفرعيهم ، أول الأمر ، فيما هو تقريباً براندنبرج وبومرانيا ، أى فى الجزء الأوسط والشرقى من بروسـيا ، وذلك زمن المؤرخ بلينى Pliny (ت حوالى ١١٥م) والمؤرخ تاكيتوس Tacitus (ت حوالى ١٢٠ م)[٤] .

---

(١) Karsten, op. cit., PP. 217-18.

(٢) Thomson, op. cit., P. 246 ; Mattingly, H., Tacitus on Britain & Germany, P. 169.

(٣) إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربية – مصر ١٩٥٨ . ص ٣٦ ، ٦٤ ؛ تاكيتوس والشعوب الجرمانية فقرة (٤٣) ص ٩٤ ، ص ١٥٤

Gautier, op. cit. P. 92 ;,

(٣) راجع : تاكيتوس والشعوب الجرمانية فقرة « ٢ » ص ٤٨ ؛

Karsten, op. cit., P. 218 ;

وكانوا فى أول عهدهم التاريخى حلفاء للقوط الذين دفعوهم من مواطنهم الأصلية حول البحر البلطى، كما يقول المؤرخ القوطى جوردين Jodranes (ت فى القرن السادس الميلادى[١]) . وبدأت حركات الوندال الأسديين ، نحو الجنوب خلال القرن الثانى الميلادى ، وظهر خطرهم لأول مرة حوالى عام ١٦٧ م ، إذ حدث فى ذلك العام، أن تحرك فرعان من القبائل الجرمانية هما : الماركومان والكوادى ، ومعهما بعض القبائل الصغيرة من بينها الوندال[٢] . وصل الوندال إلى حدود بوهيميا ، حيث تركوا اسمهم على الجبال التى تفصل بين سيليسيا وبوهيميا ؛ ومن ثم عرفت باسم جبال الوندال Vandalici Mountes، وهى المعروفة حالياً باسم : Risen Gebirge[٣] ، ومعناها : الجبال الشاهقة . كان الوندال فى حركتهم هذه بقيادة زعيمين هما : أمبرى Ambri وأسى Assi ، واشتبكوا فى معركة ضد جيرانهم اللومبارد ، خرجوا منها مهزومين[٤] .

وكلما ازداد ضعف الأمبراطورية الرومانية ، كلما توغل الوندال جنوباً ، فساروا نحو حوض الدانوب الأوسط ، ضمن جموع الماركومان ، ودفعوا أمامهم قبائل الإزايجيين Izayges البدو الذين اجتاحوا داكيا[٥] . وفى حوض الدانوب ، انبرى الأمبراطور الفيلسوف ماركوس أورليوس M. Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) لحرب الوندال أولا ، وذلك عام ١٦٨[٦] ، وفى نهاية الحرب عقد مع فرع الأسديين منهم ، هدنة ، منحهم بمقتضاها سكناً فى أقليم داكيا Dacia ؛ ويقال أن الوندال كانوا فى هذه الحركة الأخيرة بقيادة اثنين من

(١) Hodgkin, op. cit., P. 214;

(٢) Cary, M., A History of Rome Down to the Reigh of Constantine, P. 655.

(٣) Williams, H.S. (Edit.), The Historians History of the World, Vol. VI, P. 598.

(٤) Moss, H. St. L.B., The Birth of the Mid. Ages, PP. 47- 8 ; Hodgkin, op. cit., P. 214.

(٥) Cary' op. cit. P. 655.

(٦) Villari, op. cit., P. 69.

زعمائهم هما : راوس Räus ورابتوس Rapetus . وظل الأمبراطور أورليوس يتردد على منطقـة الدانوب حتى وفاته فى قندبونا (فيينا) فى عام ١٨٠م ؛ ولما خلفه ابنـه كومودوس Commodo (١٨٠ — ١٩٢ م) ، عقـد هدنة مع الماركومان ، وحرم عليهم الاعتـداء على الوندال ، الذين أضحوا فى حماية الرومان(١) .

ظل الوندال هادئين لفترة من الزمن فى مقامهم المعترف به فى داكيا شمالى الدانوب ، حتى استطاع الأمبراطور كاراكالا Caracalla (١٨٦ — ٢١٧م) أن يكتب إلى السناتو فى إحدى رسائله عام ٢١٥م ، بأنه نجح فى التفرقة التامة بين الوندال والماركومان ، وهم الذين كانوا فى حلف معاً ضد الرومان ؛ غير أن الوندال ، وقد دأبوا على النقلة وعـدم الاستقرار فى مكان معين ، استأنفوا حركاتهم وعبثهم بأراضى الأمبراطورية ، حتى اضطر الأمبراطور أورليان Aurelian (٢٧٠ — ٢٧٥م) « معيد بناء الأمبراطورية » ، إلى حربهم وهزيمتهم فى عام ٢٧١م ؛ لا نعلم شيئاً عن الموقعة ؛ ولكن الذى نعلمه هو المفاوضات التى أعقبت الوقعـة ، إذ أرسل الوندال سفراءهم لطلب الصلح من الرومان ، ووافق الأمبراطور ، بشرط أن يرسل الوندال رهائن من أشرف بيوتهم ، من أبناء ملوكهم ونبلائهم ؛ تم الصلح وعاد الوندال إلى الاستقرار فى داكيا ، حيث أمدهم الأمبراطور أورليان بالمؤن الكافية ؛ وحرص الوندال على تنفيذ شروط المعاهدة ، وبلغ من شدة حرصهم ، أن ملك الوندال أصدر أمراً بأعدام كل وندالى يقوم بالتخريب فى أراضى الأمبراطورية ، وجاء ذلك الأمر على أثر قيام نحو خمسمائة من مخربى الوندال واجتياحهم لأقليم مؤيسيا(٢) .

---

(١) Hodgkin, op. cit., PP. 214-15.

(٢) أنظر الخريطة

Souttar' R., A short Hist .of Mediaeval Peoples, P. 327.

كان من بين شروط هذه المعاهدة، أن يقدم الوندال إلى الرومان فى كل سنة : ألفين من فرسانهم جنوداً معاهدين Foederati ، Leati أى auxiliaries وذلك للخدمة فى الجيش الرومانى ؛ أوفى الوندال بهـذا الشرط ، بدليل أن سجلات الجيش الرومانى فى مطلع القرن الخامس الميلادى ، أشارت إلى أن : « الجناح الثامن الوندالى الذى يعمل فى مصر » ، وهو يتكون من ستمائة فارس :
"Sub dispositione viri spectabilis comits rei militaris per Aegyptum : Ala Octava Vandilorum Neae".(١)

وهذا ما أتاح الفرصة أمام ستيليكو Stilicho الوندالى ، لأن يرقى إلى أعلى المناصب الحربية فى الأمبراطورية الرومانية الغربية ، بل إلى أن يتحكم فيها فترة من الزمن(٢) .

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، يبدو أن كان هناك قسم من الوندال السيليين يتجول نحو الراين ، مع فريق من البرجنديين — الذين أشار إليهم المؤرخ بلينى بأنهم فرع من الوندال — ، فتصـدى لهم الأمبراطور بروبس Probus (٢٧٦ — ٢٨٢م) وأوقع بهم هزيمة كبرى ، انجلت عن قتل الكثير وأسر القليل ، وكان من بين الأسرى إجيل Igil ، القائد الوندالى ، أرسل الأمبراطور هؤلاء الأسرى جميعاً إلى بريطانيا فى عام ٢٧٧ م ، ليقيموا فيها ، ويقال أن الحصن الذى أقيم على تلال جوماجوج Gomagog بالقرب من كمبردج ، بناه أولئك الأسرى الوندال ، ولذا عرف باسمهم : Vandalbury (٣).

وقرب نهاية حكم الأمبراطور قسطنطين الأكبر (٣١٣—٣٣٧م) ، قامت أزمة حول مصائر الوندال المقيمين فى بعض أجزاء داكيا شمالى الدنواب، ويجاورهم من الغرب ماركومان بوهيميا ، ذلك أن نزاعاً شب بين القوط القاطنين شرقى

---

(١) Hodgkin, op. cit.

(٢) Maritius, M. (C. Med. H.) Vol. I, P. 269.

(٣) Stephenson, C., Mediaeval Europe, P. 51 ; Hodgkin, P. 217.

الوندال ، وملك القوط يومئذ هو جبريك Geberic ، و بين الوندال، وملكهم المعاصر فيسومار Visumar ، انتهى ذلك الصراع بانتصار القوط وإبادة معظم الوندال وقتل ملكهم ، وذلك فى الفترة ما بين ٣٣١ ؛ ٣٣٧ م ، التمس الناجون من الوندال ، من الامبراطور قنسطنطين ، أن يمنحهم موطناً جديداً داخل أراضى الأمبراطورية ، وتعهدوا أن يكونوا رعاياه الأوفياء ، و يشبه هذا الموقف ، ما حدث للقوط يوم التمسوا مثل هذا الموطن خشية من بطش الهون فيما بعد(١) .

وافق الأمبراطور قنسطنطين ومنح الوندال وطناً فى ولاية ، بانونيا Pannonia فى وادى الدانوب ، وهى المجر الحالية تقريباً(٢) ؛ وفى هذا الموطن الجديد ظل الوندال نحو سبعين سنة ، على طاعتهم للأمبراطورية الرومانية . وخلال هذه الفترة أخذ الوندال ببعض أهداب الحضارة الرومانية(٣)، ومن غيرشك اعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسى وكان جيرانهم القوط قد اعتنقوها بفضل المبشر القوطى أوليفلاس ، واستفاد الوندال من ترجمة أوليفلاس للأنجيل إلى اللغة القوطية ، حتى أنهم حملوا معهم هذه الترجمة عندما رحلوا بعد ذلك إلى أسبانيا(٤).

ولما كانت الأمبراطورية الرومانية قد تدهورت زمن الأمبراطور هونوريوس Honorius (٣٩٥ — ٤٢٣م) ، وكان الهون Huns التتار ، قد غزوا ماهو المجر الحالية ، قرر الوندال فى عام ٤٠٦ م أن يبحثوا عن وطن جديد غير بانونيا(٥) ؛ فتحالفوا مع أشقائهم السيليين الذين كانوا يقيمون فى ذلك الوقت مع البرجنديين فى وادى نهر المين Maine ، وانضم إليهم السويف الجرمان والألان

---

(١) دولة القوط الغربيين ص ٥١ ؛ ولنفس المؤلف : القوط والإمبراطورية الرومانية حتى نهاية القرن الرابع الميلادى (المجلة التاريخية المصرية العدد السابع ١٩٥٨) — ص ٤٠ وما بعدها .

(١) Souttar , op. cit., P. 327.

(٢) Villari, op. cit., P. 96.

(٣) Gautier, op. cit., PP. 85-88 ; Hist. History, P. 598.

(٤) Hodgkin, op. cit., PP. 217-218.

(٥) Lot, op· cit., P. 78.

Alani الأيرانيون ، وتحركت هذه الجموع نحو الشمال الغربى ، إلى الراين ، يريدون نهب غالة البلجيكية ؛ وفى ذلك الوقت كان ستيليكو الوندالى ، كبير مستشارى الأمبراطور هونوريوس ، قد اتهمه حساده ومنافسوه ، بأنه هو الذى دعا الوندال للهجوم على الأمبراطورية ، ويبدو أن هذه التهمة غير صحيحة(١) ، والأرجح أنه استعان بهم ضد الفرنجة فى غالة .(٢)

ليست لدينا معلومات كافيـة عن القتال الذى شب بين الوندال و بين الفرنجة فى غالة ، غير أنه عندما ظهر هؤلاء البرابرة على الشاطىء الأيمن للرين ، قرب مدينـة ماينز فى ديسمبر من ذلك العـام ، لم يكن للرومان قوات كافية فى شمـالى غالة ، ولذلك عهد الرومان إلى أحلافهم المسيين المعـاهدين ، وهم مزيج من الفرنجة الجرمان ، بمحـاربة الغزاة ، وانتهت الحرب بهزيمة الوندال(٣) ، وقتـل ملـكهم الأســدي جودجسكلس Godigisclus أو Godegisel عام ٤٠٦ م وقتل معه نحو ألفين من رجاله ، ولم ينقذ الوندال من الإبادة سوى وصول أحلافهم من الآلان فى الوقت الملائم . وهذا الملك القتيل هو أبو جزريك ، وكان لمصرعه على مشهد منه ، على يد الفرنجة ، أثره فى الروح الإنتقامية التخريبية التى عرف بها جزريك بصفة خاصة(٤) .

عبر من نجا من الوندال نهر الراين ، ودخلوا غالة ، حيث ظلوا نحو ثلاث سنوات ينهبون فى مدن الغال . وكان يلى أمر الوندال يومئذ الملك جونثريك Guntheric ابن القتيل وأخو جزريك ، قاد هـذا الملك قومه وأحلافه من السويف والآلان ، فى عام ٤٠٩ م ، وتحرك بهم نحو الجنوب ، بحثاً عن جو صحو

---

(١) Hist. History, op. cit., P. 598 ; Pirenne, H., A History of Europe from theInvasions to the 16th century, (Lond.), 1936), P. 28.

(٢) Hodgkin, PP. 219-220.

(٣) Lot, op. cit., PP. 79-80.

(٤) Gautier, op. cit., PP. 99, 111.

مشمس ، وهو الجو الذى طالما أغرى البرابرة ، وكان له أثر كبير فى تحركاتهم . ووصلت هذه الجموع إلى جبال البرانس وأخذت تقرع أبواب أسبانيا فى الفترة مابين ٢٨ سبتمبر ، ١٣ أكتوبر من عام ٤٠٩م، وبدا عجز القوات الأمبراطورية الرومانية ، فلم تفلح فى ردها أو مقاومتها(١) .

دخل الوندال وأحلافهم أسبانيا ، عن طريق بوردو إلى بامبلون (بنبلونه) ثم تتبعوا الطريق الرومانى الكبير إلى براجا (برغش) وليون وزامورة وسلامنكة (طلمنكة) فماردة فأشبيليـة(٢) . وقد تبع الوندال وأحلافهم ، إلى أسبانيا ، برابرة آخرون ، هم القوط الغربيون ، بقيادة ملكهم آتولف ، وحاربوا الوندال باسم الرومان ، ومن أجل مطامعهم الشخصية ، وهزموهم أكثر من مرة ، حتى قيل : إن الوندال ليسوا محاربين من الدرجة الأولى(٣) . وأدى هذا الصراع إلى تخريب الولايات الخصيبة المثمرة ، مما أضر بالمنتصر والمهزوم على السواء ، بل لقد بلغ الأمر بالجيش الوندالى، أن كان يشترى مكيال الدقيق بما يعادل نحو ٣٦ شلناً، ويقال ، إن أماً وندالية ذبحت أطفالها وأكلتهم(٤) .

لم يكن أمام الأمبراطور هونوريوس ، إلا أن يعترف بالأمر الواقع ، ويذكر المؤرخ بروكبيوس Procopius أن الأمبراطور عقد مع الوندال ما يشبه الهدنة أو المعاهدة ، سمح لهم بمقتضاها ، أن يقيموا فى أسبانيا بشرط ألا يقوموا بنهب أو تخريب أو اعتداء(٥) . وهكذا استقر الوندال بفرعيهم السيلى والأسدى ، فى أسبانيا ، فاستوطن الفرع الأسدى منطقة غاليسيا Golloecia فى الشمال

---

(١) Deanesly, op. cit., P. 75 ; Villari, op. cit., P. 96 ; Karsten, op. cit., 219 P. Davis, R.H.C., A Hist. of Mediaeval Europe (Lond., 1957), P. 23; Boissonnade, P., Life & Work in Mediaeval Europe, (Lond.), 1937),; PP. 15-16.

(٢) Gautier, P. 102 ; Souttar, P. 327.

(٣) Villari, op. cit.‘ P. 96 : Schmidt, op. cit., P. 304.

(٤) Hodgkin, P. 221.

(٥) Hist. History, P. 598.

الغربى ، و بجوارهم السويف[١]. أما الفرع السيلى فأقام فى منطقة بايتيكا Baetica وهى التى عرفت باسم الوندال ، فصارت « الأندلس » وهنا من المؤرخين من يشك فى نسبة الأندلس إلى الوندال . ويقول إن كلمة الأندلس Andalusia أو Handalusia ، ليست سوى الصيغة العربية لكلمة هسبريا Hesperia التى أطلقها المغاربة أصلاً على كل أسبانيا[٢]. والراجح أن الأندلس نسبة للوندال الذين أقاموا فيها فترة من الزمن . أما العناصر البربرية الأخرى التى صحبت الوندال فى اقتحامهم أسبانيا ، أو جاءت فى أعقابهم ، فهى الآلان الإيرانيون الذين أقاموا فى البرتغال ، والقوط الغربيون الجرمان الذين استقروا فى الشمال الشرقى من أسبانيا[٣] .

وحدث فى عام ٤١٦م أن قبض الضابط الرومانى قنسطانطيوس[٤] . على فرديبال Fredibal ملك الوندال السيلين ، بطريقة خادعة ، وأرسله إلى الأمبراطور هونوريوس ، واحتفل هورنويوس بهذا النصر فى العام التالى ، وسيق الأسير أمام عربة الأمبراطور فى موكب النصر . والواقع أن الخطر الحقيقى الكامن على الوندال فى أسبانيا ، لم يكن من جانب الأمبراطورية الرومانية

---

(١) نظر الاستقرار السويف فى غاليسيا ، وهى التى عرفها العرب باسم « جليقية » ، عرف السويف كذلك ، فى الكتب العربية ، باسم « الجلالقة » .

(٢) Hodgkin, P. 223, N. I ; Hartmann, R., Art. 'Andolusia' (Encycl. of Islam).

(٣) راجع دولة القوط الغربيين ص ٨٥ – ٩٣ .

(١) القائد قسطانطيوس ، شجاع مظفر ، خدم الإمبراطور هونوريوس ، تزوج من بلاسيديا Balcidia أخت الإمبراطور وإبنة تيودسيوس العظيم : وذلك على كره منها ، تم الزواج عام ٤١٧ عقب عودتها من بلاط القوط الغربيين حيث كانت أسيرة ، بعد أن كانت متزوجة من أتولف ملك القوط الغربيين ، الذى أحبته ، وأعيدت عند ما تم تبادل الأسرى . وبزواج قسطانيوس منها صار شريكاً للأمبراطور فى الحكم باسم قسطانطيوس الثالث ، ولكنه لم يلبث أن مات بعد أن أنجبت له ولداً ، هو الذى صار الإمبراطور فالنتنيان الثالث وهو طفل بوصاية أمه بلاسيديا ، ولهذه السيدة الوصية أثرها الكبير فى دعم التعاون بين بلاط القسطنطينية وبلاط رافنا ، وكذلك فى ضياع أفريقية الرومانية على يد الوندال بسبب سوء تدبيرها .
Hist. History, P. 572 ; Schmidt, op. cit., PP. 275-599 .

المنهارة ، وإنما جاء من ناحية القوط الغربيين ، وملكهم يومئذ واليا Wallia (٤١٥ — ٤٢٠م) ؛ ففى عام ٤١٨م ، قضى القوط نهائياً على الوندال السيلين فى الأندلس ، كما قضوا على الآلان فى البرتغال ، واستطاع من نجا من الآلان ، أن يفر إلى الوندال الأسديين فى غاليسيا حيث اندمجوا فيهم ، حتى أضحى ملك الوندال فى غاليسيا يعرف باسم « ملك الوندال والآلان » Rex Vandalorum et Alanorum[١] .

وفى الحرب التى شب أوراها فى غاليسيا عام ٤١٩م بين السويف من جانب ، وبين الوندال الأسديين وحلفائهم الآلان من ناحية أخرى ، انتصر الوندال بقيادة ملكهم جوندريك ، فهرب ملك السويف هرمانريك Hermanric بقومه أمام بطش الوندال ، وانحازوا إلى منطقة اشتوريا الجبلية فى أقصى شمالى أسبانيا[٢] . فتعقبهم الوندال وحاصروهم ، ولم يرفع الوندال حصارهم إلا عندما تدخل الكونت استوريوس Asterius الحاكم الرومانى فى أسبانيا ؛ استجاب الوندال وتركوا السويف ، لكنهم توجهوا مباشرة إلى منطقة بايتيكا (الأندلس) فى الجنوب ، واستقروا فيها فى ذلك العام (٤١٩) ؛ أى أنهم حلوا مكان أشقائهم السيلين السابقين ، ويحتمل أنه كان فى هذه المنطقة قلة باقية من السيلين ، لم تلبث أن اندمجت وذابت فى الأسديين[٣] . ومن هذا المكان بدأ الوندال يتطلعون إلى البحر الأبيض والمحيط الأطلسى ، كما بدأوا يحلمون بالعظمة البحرية .

غير أن بلاط رافنا لم يقف مكتوف الأيدى أمام تقدم الوندال السريع الظافر فى أسبانيا ، فقرر فى عام ٤٢٢ م ، وهى آخر سنوات حكم الأمبراطور هونوريوس ، المغلوب على أمره ، أن يقوم بتحرير بايتيكا ، وانبرى لهذا

---

(١) Gautier, PP. 103-105.

(٢) Gibbon, Ed., Decline & Fall of the Roman Empire, (Lond., 1954), III, P. 328.

(٣) Hodgkin, P. 224.

المشروع القائد العام للجيوش الرومانية ، وهو قسطينوس Castinus ، وكان القوط الغربيون يساعدونه فى حرب الوندال ، وكاد قسطينوس ينتصر ، لولا الانقسام الذى مزق هيئة القيادة الأمبراطورية ، مما أغضب بونيفاس Bonifacius وهو الذى يلى قسطينوس فى القيادة العامة ؛ ورغم أنه أشجع ضباط الأمبراطورية.

ورغم أن بونيفاس أشجع قادة الأمبراطورية ، وأكفأ من رئيسه ، إلا أنه لم يحتمل غطرسة قسطينوس ، فانسحب فى هدوء وعبر إلى أفريقية ، التى وليها فيما بعد من قبل بلاسيديا وابنها فالنتنيان الثالث[١] . ومع قيام هذا الانقسام ، انتصر قسطنيوس فى أول الأمر على الوندال ، وحاصرهم فى إحدى مدن بايتيكا ، حتى قاسوا من الجوع ، وكانوا على وشك الاستسلام ، لولا حماقته وتسرعه فى الدخول فى معركة مع قوم جياع ، وذلك فى الوقت الذى خدعه فيه حلفاؤه من القوط ، فانهزم هزيمة منكرة وفر إلى طركونه Tarragona[٢] .

لم يقنع الوندال بمنطقة بايتيكا كدولة لهم ، بل أخذوا على أثر انتصارهم على الرومان ، يغيرون على البلاد والموانى ، فنهبوا ميناء قرطاجنة الجديدة بأسبانيا ، كما نهبوا أشبيلية ، ودمروا ولاية طركونة ؛ وتعقب الوندال ضحاياهم من الأسبان الذين هربوا لاجئين إلى جزر البليار ، فاستولوا على هذه الجزر عام ٤٢٥ م ، وتشمل جزر البليار : ميورقه Majorca ومينورقه Minorca ويابسة . ومن المحتمل أن الوندال استولوا على بعض السفن فى الموانى التى استولوا عليها ؛ وبهذا

---

(١) على أثر وفاة الأمبراطور هونوريوس فى عام ٤٢٣ م قامت مشكلة حول ولاية العرش ، فهناك فالنتنيـــان الثالث بن بلاسيديا ، وعمره ٤ سنوات ، يعيش مع أمه منفياً فى القسطنطينية ، ومعنى توليته تدعيم الصداقة بين الشرق والغرب ، وهذه أمنية عزيزة للحزب المنادى بتوليته ، ولكنها تؤدى فى نفس الوقت إلى منافسة ونزاع مسلح بين الأوصياء ، نظراً لصغر سنه . والرأى الثانى انتخاب إمبراطور من غير الأسرة الأمبراطورية ، وهذا ما يزكيه قسطنيوس القائد العام فى الغرب ، نجح هذا الرأى وتولى حنا رئيس الموثقين ، وهو رجل بيروقراطى مجرب ، ولكنه آلة فى يد القائد العام (C. Med. H. (Sh.), I, P. 88).

(٢) Gibbon, op. cit., PP. 328-29.

الوضع الجديد ، تحول الوندال إلى أعمال القرصنة فى البحر ، بل امتدت غزواتهم إلى ولاية مرطانية Mauritania الأفريقية ، عبر الزقاق[١] . ولـكن يبدو أنه لم يكن لهم هدف واضح يومئذ فى الاستقرار على ساحل أفريقية الشمالى .

* * *

وبعد أن استقر الوندال « معاهـدين » فى أسبانيا نحو عشرين سنة ، من ٤٠٩ إلى ٤٢٩م . حان الوقت الذى اضطر فيه الـكونت بونيفاس حاكم أفريقية الرومانى (٤٢٢ — ٤٣٢م) إلى دعوتهم إلى أفريقية .

وتفسير ذلك : أن الأمبراطور تيودسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠م) ، أمبراطور القسم الشرقى من الأمبراطورية الرومانية . صمم على إحياء الأمبراطورية الرومانية بشطريها ، وتوحيدها تحت سيادته ، فأرسل جيشاً ، تحت إمرة أقدر قواده ، وهما أردا بوريوس Ardaburius الآلانى وابنـه أسبار Aspar وتتلخص مهمة هـذا الجيش فى طراد الأمبراطور « حنا الموثق » الذى عينه قسطينوس وتولية فالنتنيان الثالث ابن عمته بلاسيديا . تحمس تيودسيوس لهذا المشروع وكاد يتولى قيادة الجيش بنفسه ، لولا نصيحة الأطباء له رعاية لصحته[٢] . نجح الجيش فى القضاء على حنا وقتله عام ٤٢٥ وكان المتحكم فى القسم الغربى من الأمبراطورية آنذاك ، القائد العظيم أيتيوس Aëtius ؛ فلما رأى انتصار جيش الشرق ، اقتنع بما تم ، رغم أنه كان من أنصار حنا ، وأنجده بنحو ٦٠ ألف من مرتزقة الهون . قبـل أيتيوس أن يتولى منصب القيادة العامة فى الغال بلقب « كونت » ؛ وتمت مراسيم تتويج فالنتنيان الثالث فى عام ٤٢٤ م فى إيطاليا ؛ والملاحظ ، أن تيودسيوس الثانى ، رأى ألا يرهق نفسه بتحمل أعباء الغرب ومشاكله ، فضلا عن أخطار البرابرة المحدقة به فيما وراء الألب ، ولذلك اطمأن

---

(١) Deanesly, op. cit., P. 76 ; Lot, op. cit., P. 87.

(٢) Hist. History, P. 573.

بولاية ابن عمته ، وزوجه من ابنته فيما بعد ؛ وحكم فالنتنيان الثالث من ٤٢٥ م إلى ٤٥٥ م(١) .

وفى نظير جهود الأمبراطور تيودسيوس الثانى فى تولية فالنتنيان الثالث ، تنازلت الأمبراطورية الغربية له عن إقليم الليريا الغربى ؛ ومعنى هذا ، انضمام دالماشيا البحرية الغنيـة ، وكذلك تنازلت الأمبراطورية الغربيـة عن بانونيا ونوريكوم للأمبراطورية الشرقيـة . ولما كان عمر فالنتنيان الثالث عند ولاية العرش ، ست سنوات ، فقد قامت أمه بلاسيديا وصية عليـه بلقب أوغسطا Augusta ؛ وبجانبها فيلـكس Felix القائد العـام لجيوش الأمبراطورية فى الغرب (٤٢٦ — ٤٣٠م) .

والمعروف عن بلاسيديا الوصية ، أنها تحكمت فى الأمبراطورية الغربية باسم ابنها مدة ربع قرن من الزمان ، واشتهرت بالحقـد وسوء التدبير والعجز عن سياسة الأمبراطورية ، على عكس زوجة ابنها يودكسيا Eudoxia التى زانها العقل وجملتها العبقرية(٢) .

وبالإضافة إلى سوء القيادة العليا وعجزها ، كانت القوة الحربية الرومانيـة فى الغرب ، وقد وصلت إلى درجة كبيرة من التدهور والانحلال ، وغدا الاعتماد الأساسى فيها على المرتزقة من البرابرة(٣) . وأبرز شخصيتين فى القيادة العسكرية فى ذلك الوقت هما : أيتيوس وبونيفاس ؛ أما شخصية البطريق فيلـكس ، فلم تـكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى شخصيتى ايتيوس و بونيفاس ، وهما اللذان نظر إليهما باعتبارهما آخر الرومان . كان تعاون هاتين الشخصيتين أمراً هاماً

---

(١) Villari, op. cit., PP. 91-92.

(٢) Hist. History, P. 574; Benthelot, M.A., Le Monde Barbare, L'Ivasions. (Hist. Générale) T. I, P. 66.

(٣) Katz, S., The Decline of Rome; & the Rise of Med. Europe, (New York, 1955) PP. 74-75; Mott, G.F., & Dee, H.M., Middle Ages (New York, 1952). PP. 7-11; Boissonnade, op., cit, PP. 14-17.

من أجل انقاذ الأمبراطورية ، غير أن منافستهما وانقسامهما ، كانا السبب المباشر فى فقدان أفريقية ، فضلاً عن تمزيق الأمبراطورية برمتها .

أخذ أيتيوس يتقرب من بلاسيديا وابنها ، ويوطد صداقتـه مع القصر الأمبراطورى فى رافنا ، مظهراً ولاءه وإخلاصه ، ولما كانت بلاسيديا ضعيفـة التدبير وسيئة التقـدير ، فقد خضعت لرغبات ايتيوس ، ودسائسه ضد غريمه ومنافسه بونيفاس ؛ وذلك على الرغم من ولاء بونيفاس للأسرة الأمبراطورية ، بدليـل أنه لم يقف موقف المتفرج إبان محنة بلاسيديا وإبنها حين كانا منفيين بالقسطنطينية ؛ وضع بونيفاس قوات أفريقية وأموالها فى خدمة بيت تيودسيوس العظيم ، وقمع أيضاً — الأمبراطور حنا المغتصب ، على حين كان حنا يلقى التأييد والمساعـدات من جانب ايتيوس وأحلافه من الهون[١] . ولـكى يحكم نسيج مؤامراته ، بعث فى الخفاء إلى بونيفاس ، ينصحه[٢] . بعـدم الاستجابة إلى أمر الأمبراطورة .

أما أحوال بونيفاس ، « كونت أفريقية » فى ذلك الوقت ، فكانت متطورة ، إذ حدث عقب وفاة زوجته الـكاثوليكية ، أن رغب فى التفرغ إلى العبادة والنسك وترك خدمة الدولة ، بعد أن نجح فى حماية ولايته من غزوات المغاربة ، غير أن صديقه القديس أوغسطين ، نصحه بالبقاء فى خدمة الدولة ، فتزوج من وارثة أسبانية ثرية ، ولـكنها على المذهب الأريوسى ، وانصرف إلى اللهو بعض الوقت ، وأهمل شئون ولايته ، فتجددت اعتداءات المغاربة ، حتى أن القديس

---

(١) أيتيوس بن جودنتيوس Gudentius الإسكيثى الأصل ، وقائد الفرسان فى الأمبراطورية الغربية ، وأمه نبيلة إيطالية ، ومنذ كان أيتيوس شاباً ، وهو يعمل فى الجندية ، وكان من بين الرهائن الذين قضوا وقتاً طويلا فى معسكرات الهون حتى تكونت صـداقة بينه وبينهم

(Villari, P. 92 ; Gibbon, P. 326, N. 4 ; Lot, La Fin du Monde Antique et le Debut du Moyen Age, (Paris, 1951), PP. 239-40 ; Souttar, op. cit., PP. 212-15 ; Benthelot, op. cit. P. 69

(٢) Gibbon, P. 328 ; Hist. History, P. 575 ; Villari, P. 91.

أوغسطين بعث إليه برسالة ينبهه فيها إلى العناية بواجباته[١]. استدعته الأمبراطورة بلاسيديا إلى إيطاليا فى عام ٤٢٧ م ، فرفض إطاعة الأمر ، فجاءت الجيوش الأمبراطورية لتجبر بونيفاس على الطاعة والولاء ، لكنه هزمها وشتتها ، ثم جاءت حملة أخرى بقيادة قوطى يعرف باسم سجسفولت Sigisvult ، فاستطاعت هذه الحملة أن تنتصر عليه وتستولى على قرطاجنة العاصمة ، وعلى هيبو ، مركز أسقفية القديس أوغسطين[٢] .

ويبدو أن بونيفاس رأى ألا طاقة له بجيوش الأمبراطورية ، التى لا شك تفوق ما تحت يده من قوات فى أفريقية ، فتملكه اليأس فضلاً عما اعتلج فى نفسه من صراع عنيف ، بين الولاء للأمبراطورية والانتقام منها ، إذ لا يزال يشعر بخيبة أمل عندما لم يعين فى منصب القيادة العامة بعد قسطينوس ، وهو الذى خلفه فيلكس بعد القضاء على حنا وأنصاره وتولية فالنتنيان الثالث ؛ كذلك يبدو أنه بدأ يتطلع فى نفس الوقت لأن يصير الحاكم بأمره على أفريقية الرومانية بمساعدة الهراطقة الموتوريين من الأريوسيين وغيرهم .

وبعد تردد طويل ، بعث بسفير من من قبله إلى معسكر الوندال فى أسبانيا يدعوهم إلى أفريقية ، وذلك فى عام ٤٢٨ م . ويحتمل أن مبعوثه إلى الوندال هو نفس القائد القوطى سجسفولت[٣] .

كان يتزعم الوندال فى ذلك الوقت قسيمان فى السلطة هما : جوندريك وأخ غير شرعى له هو جزريك ؛ ويقال إن رسالة بونيفاس إلى الوندال كانت تتضمن اقتسام السلطة فى أفريقية بين ملكى الوندال وبين بونيفاس ، لكن يشك فى صحة هذا الخبر ، لأنه لم يرد فى مرجع سوى ما كتبه بروكبيوس

---

(١) يوجد بعض أجزاء من هذه الرسالة فى : Villari, P. 94.

(٢) Gibbon, P. 328 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89, 90 ; Lot, P. 88.

(٣) C. Med. H. (Sh.), I, P. 90 ; Hodgkin, P. 246 ; Hist. ;History, PP. 575-76 ; Souttar, P. 327 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

Idatius الأسبانى ، وبروسبر Prosper ؛ الأكويتانى وغيرهما ، كتبوه بهذه الصيغة Gaisericus ويقرب منها الصيغة التى استخدمها المؤرخ القوطى جوردين Jordanes ، والمؤرخ البيزنطى بروكبيوس ، من مؤرخى القرن السادس الميلادى ، وهذه الصيغة هى Gaizerichus ؛ وكتبه غيرهم Gensericus Gesericus, وهكذا . ويبدو أن مرجع هذا الاختلاف الشكلى ، هو أن مثل هذه الصيغة كان شائع الاستعمال فى بيزنطة . ورغم أن أغلب المراجع يكتبه «جنزريك» إلاأن الباحث الألمانى فريدلندر Friedländer وهو الذى كتب عن المسكوكات الوندالية ، يفضل استعمال Gaiserich ، ويفسر هذه الكلمة بأنها مشتقة من كلمتين : Gais بمعنى « رمح » Reiks ، بمعنى « ملك »(١) .

اقترن اسم هذا الملك دائماً بالتدمير والتخريب ، والفزع للامبراطورية الرومانية . ورغم ما قاساه الوندال من محن وهزائم متلاحقة ، سواء منذ كانوا فى مورافيا ، أو أمام الفرنجة على ضفاف الراين ، أو أمام القوط الغربيين فى أسبانيا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا محاربين من الدرجة الأولى مثل جيرانهم البرابرة ، وهذا ما يؤيد وجهة النظر القائلة بهمجيتهم (Varbaricum) ؛ رغم هذا ، فإن هذه الصفة لم تلصق بهم خلال حياة جزريك الطويلة ، فهو يمتاز بعقل جبار، وشجاعة منقطعة النظير ، بثت فى الوندال روحاً جديدة . حقيقة أنه كان قاسياً وحشياً ، إذا ما قيس بأقرانه من ملوك البرابرة الذين صار مصيرهم خيراً من مصيره أمثال ألاريك وآتولف من ملوك القوط الغربيين . هذا ويفترق جزريك عن أى زعيم من غزاة الشماليين فى أنه لم يدانه أحد منهم فى شدة نهمه للكسب والغنيمة ؛ وباستطاعته أن يكون صادق الحدس والتقدير لموارده وموارد أعدائه ،

---

(١) Halphen L. Les Barbares (Paris 1926). P. 38 ; Hodgkin P. 227 Gibbon P. 329.

Procopius ، وهو ليس مرجعاً أصيلاً لهـذه الفترة . مات جوندريك ، وانتخب الوندال جزريك ملكاً عليهم، وحام الشك حول موت أخيه جوندريك، وهل لجزريك دخل فى ذلك ؟ والراجح أن وباء انتشر فى جيش الوندال قبيل الغزو الأفريقى ، وكان جوندريك من بين ضحاياه(١) .

والواقع لم يكن الوندال بحاجة إلى مثل هذا الاستدعاء من جانب بونيفاس لغزو أفريقية ، فقد أضحى الوندال قوة بحرية مخيفة ، وهناك ثراء أفريقية ومطامع الوندال واحلامهم فى تكوين دولة مترامية الأطراف ، فلم يقنعوا بحدود باتييكا كدولة لهم . وأحوال أفريقية فى غاية الملاءمة لتنفيذ مشروعهم التوسعى ، ففيها الانقسام المذهبى بين الدوناتيين والكاثوليك ، والحروب الأهليـة فيها وغزوات المغاربة المستمرة فضلاً عن الحروب والصراع فى إيطاليا نفسها وفى بلاط رافنا(٢). لذلك لم تـكن رسالة بونيفاس سوى عامل من عوامل التنفيـذ الفورى دون إبطاء .

انفرد جزريك بالسلطة على الوندال عام ٤٢٨م ، وظل نحو خمسين عاماً ، عد خـلالها أقوى وأشهر شخصية فى أوربا ، باستثناء فترة بروز أتيلا الهونى القصيرة(٣). كما كان بطل الوندال ، والعدو الرهيب لروما والقسطنطينية . كتب اسم جزريك بأشكال مختلفة ، فـكتاب القرن الخامس الميلادى أمثال ايداتيوس

---

(١) انتشرت إشاعة بعد هذه الفترة بنحو قرن ، مؤداها ، أن جزريك قتل أخاه لينفرد بالحكم ، كما أشيع مقتل بليد Bleda على يد أخيه أتيلا الهونى ؛ وكان بروكبوس هو الذى أشاع هذه الشائعة : ثم نفاها بقوله : إن الوندال لا يصدقونها . وذكر كذلك أنه سمع من بعض الوندال ، ان جوندرك وقع أسيراً فى أيدى أعدائه من جرمان أسبانيا ، وأنهم أعدموه صلباً ، أما المؤرخ ايداتيوس Idatius المعاصر ، فيربط موت جوندرك بحـادث تدنيس مقدسات أشبيليـة ، على أثر استيلائه على هسباليس Hespalis ، وهى أشبيلة ؛ إذ اعتدى على كنيستها ، ولكنه سرعان ما هلك على يد مارد أو شيطان . (Hodgkin, PP. 226-27)

(٢) Villari, PP. 94-95.

(٣) Lot, Les Jnasions, P. 87

وأن ينسج خيوط المحالفات السياسية لصالحه وصالح شعبه ، ولديه مقدرة فائقة على تكييف الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق أهدافه المحددة ؛ وقد ظل الناس يتحدثون عنه بعد وفاته بقرن من الزمان ، باعتباره أمهر الرجال ، ويشبهه من بعض الوجوه ، صنوه ألاريك التيوتونى أو البروسى ، الذى استولى على المدينة الخالدة فى العالم اللاتينى . ويقول بعض الكتاب : « إذا كان أتيلا هو نابليون القرن الخامس الميلادى ، فأحرى بجزريك أن يكون بسمارك ذلك القرن »(١) .

يصفه المؤرخ القوطى جوردين بأنه يعرج فى مشيته ، نتيجة وقوعه مرة عن جواده ، وبسبب مذابحه فى الرومان ، ذاع صيته فى العالم ، ثم هو قليل الكلام عميق التفكير ، عزوف عن الترف لأنه يرى فيه تشبهاً بأمه ذهبت ريحها(٢). ممتلىء بالأهداف البعيدة لتحطيم الشعوب ، وعلى الأهبة دائماً لأن يبذر بذور الخصام والشحناء بين أعدائه ، وأن يفيد من نتائجها .

وفى نظر مالكوس Malchus الأديب البيزنطى أن تغيراً خطيراً ألم بالوندال بعد جزريك ، أعظم ملوكهم ، فقد استهدفوا لكل أنواع الاضطراب والتدهور والانحطاط ، فضلاً عن الميوعة أو التخنث ، ولم تعد لديهم تلك القوة التى كانت لهم ، وفشلوا فى الاحتفاظ بقواتهم الضاربة ، تلك التى حرص جزريك على أن تكون معدة دائماً لأى مشروع ، مما جعله أسرع فى الانقضاض على عدوه قبل أن يهيىء نفسه للدفاع أو الهجوم .

سخر جزريك جميع موارده ، وقد دبرها أحسن تدبير ، لهدفين كبيرين هما : إذلال الأمبراطورية الرومانية والقضاء على المذهب الكاثوليكى . ويفسر الأسقف الأسبانى إيداتيوس كراهته الشديدة للكاثوليكية أن جزريك كان أريوسياً ، وإذا صح هذا ، فإن أساس هذه الكراهة يرجع إلى أنه إبن سرية

---

(١) Hodgkin P. 229 ; Gautier PP. 110-114.

(٢) Historian's Hist. P. 576 ; Villari PP. 96-7.

أو محظية أسبانية أو غالية ، فنشأ فى فجر حياته على مذهب أمه ، لكنه سرعان ما جحد هذه العقيدة وارتد عنها واعتنق الأريوسية مذهب أسلافه العسكريين (١).

— ٣ —

وفى شهر مايو من عام ٤٢٨ م ، حشد جزريك كل شعبه من الوندال والآلان الخاضعين له ، على ساحل الأندلس المقابل للزقاق — وهو مضيق جبل طارق — استعداداً لتلبية دعوة الكونت بونيفاس ، غير أنه علم قبيل رحيله بأن عدوه هرمجاريوس Hermigarius ملك السويف ، يقوم بتخريب وتدمير بعض الولايات الواقعة بالقرب من خط سير جزريك ، وأنه سوف ينقض على أملاك الوندال فى الأندلس ، فعاد مسرعاً على رأس فرقة منتخبة من رجاله ، وتعقب ملك السويف وأنزل به هزيمة ساحقة ماردة وذبح كثيراً من السويف ، ولكن هرمجاريوس تمكن من الهرب ممتطياً صهوة جواده السريع ، الذى قيل فيه أنه أسرع من الرياح الشرقية ، غير أنه لم يلبث حتى غرق فى نهر جوديانا Guadiana ؛ وعلق رجال الدين فى مارده على غرقه على مشهد منهم ، إن موته عقاب من السماء بسبب إهانته السابقة لزعيمتهم القديسة ولاليا Eulalia ، وهى إحدى الأطفال الذين استشهدوا زمن الأمبراطور دقلديانوس (٢).

وبعد أن ألقى هذا الدرس القاس على السويف ، عاد على الفور إلى ساحل البحر ، ليعبر إلى أفريقية ؛ ولكى يطمئن إلى سهولة عبور قومه فى أمن ونظام ، قام بإحصاء جميع الذكور من الوندال « من الشيخ المسن إلى الطفل الوليد »

---

(١) Gautier op. cit. PP. 110-117.

(٢) عرفت القديسة ، بأنها من أجمل الشهيدات العذارى ، بين زميلاتها اللاتى أقيمت لهن تماثيل فى كنيسة القديس أبو الليناري Apollinare فى رافنا ، ونسبت كرامات إلى هذه القديسة ، منها إنقاذ رافنا من تخريب تيودريك الثانى ملك القوط الغربيين فى عام ٤٥٦ م .

ووجد أن عددهم ٨٠ ألف ، ويبلغ المحاربون منهم نحو ٥٠ ألف ، وعبأ جيشه ، ووضع على رأس كل ألف مقدماً Chiliarch . وكان بونيفاس قد أعد السفن اللازمة لنقل الوندال عبر المضيق(١) .

والملاحظ أن أفريقية وأسبانيا ، مرتبطتان معاً ، منذ أقدم العصور ، فكلتاهما نقطة وثوب على الأخرى ، ففى التاريخ القديم والوسيط ، اتخذ الغزاة أفريقية مركز للوثوب على أسبانيا ، هكذا فعل الفينقيون قديماً ، ومن بعدهم العرب فى العصور الوسطى ؛ وكذلك كان الشأن بالنسبة لأسبانيا ، كما فعل الوندال(٢) ؛ إذ بدت إفريقية للوندال ، كما بدت ملوك القوط الغربيين من قبل — زمن الأريك ت ٤١٠ — إنها الملجأ الأمين الدائم(٣) .

أبحر الوندال من الميناء الذى عرف فيما بعد باسم ميناء طريف ، فى مايو ٤٢٩ م ، ونزلوا بساحل موريتانيا ، وهى أقرب مناطق شمالى إفريقية إلى أسبانيا ؛ وعلى الرغم من وجود اثنتى عشرة فرقة من المشاة الرومان ، وتسع عشرة فرقة من الفرسان ، فإن الاضطراب والانقسام بينها ، كل ذلك أعجزها عن حماية أفريقيا ، بل أن هذه الفرق كلها ، لا تعدل فى قوتها وروحها ، فرقتين فقط من الجيوش الرومانية زمن يوليوس قيصر .

والمعروف ، أن حدود موريتانيا المتاخمة للصحراء والمحيط الأطلسى ، كانت محاطة بقبائل متوحشة قوية تشتعل حقداً وكراهية للرومانى ، وتتحين الفرصة للانتقام ، هؤلاء هم المغاربة البدو ، وصل بعض المغاربة منهم إلى قرب الساحل ، حيث شهدوا معسكر الوندال ، ولابد وأنهم شعروا بالخوف والفزع والدهشة من هذا الغازى الجديد ، الذى يتميز بزى معين وسلاح خاص ، وتقدم حربى فريد ،

---

(١) Davis, op. cit. PP. 21-22.

(٢) Bury op. cit. P. 89.

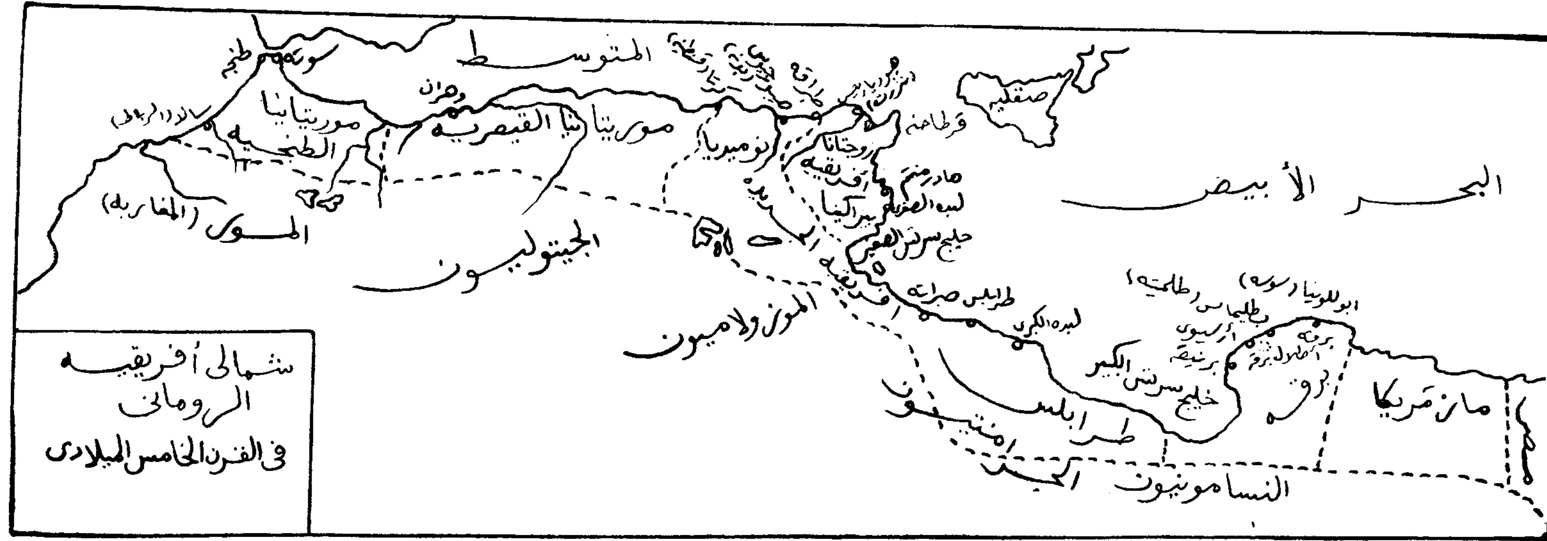
(٣) Lot Les Invasions... P. 88.

فضلاً عن صفاتهم الجثمانية التى بدت لهم ، كالشقرة وزرقة العيون ، على عكس الأفريقيين الذين أكسبهم المناخ الإفريقى لوناً زيتونياً ؛ وبعد إزالة بعض الصعوبات الخاصة بجهل الفريقين ، كل بلغة الآخر ، رحب المغاربة بالتحالف مع الوندال ، أعداء الرومان ، دون ملاحظة أو إدراك لأى نتائج فى المستقبل ، وسرعان ما اندفع عدد كبير من هؤلاء الوطنيين من وديان وغابات جبال أطلس ، فقد حانت الفرصة للانتقام من جلاديهم ؛ ولعل فى هذا الترحيب ، مايشبه ترحيب الأقباط المصريين بالفاتحين العرب المسلمين ، فراراً من ظلم البيزنطيين وإضطادهم لهم ، والقياس مع الفارق(١) .

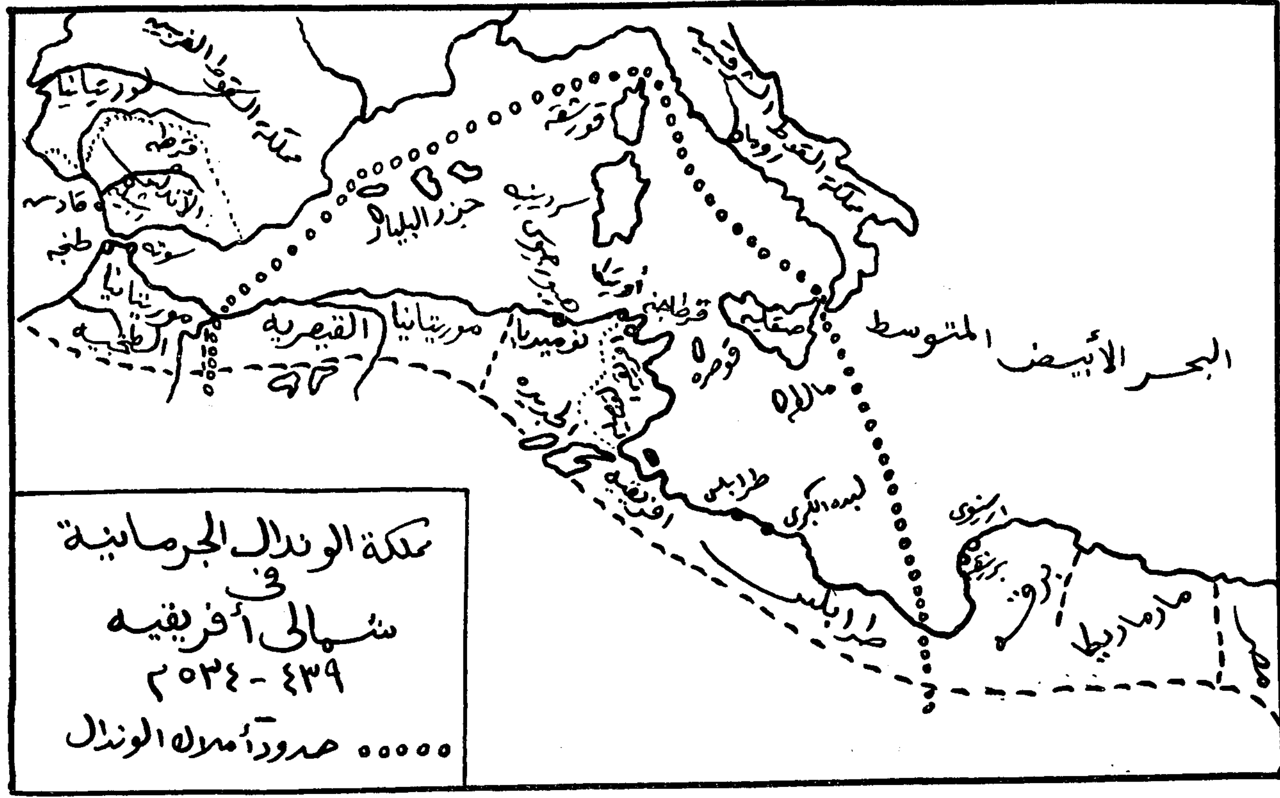
لانعلم كثيراً عن تفاصيل فتوحات الوندال الأولى فى شمالى إفريقية ، عقب نزولهم ، وكل ما نستطيع أن نقوله أنه فى أوائل عام ٤٣٠ م كان شمالى أفريقية قد استهدف لتخريب الوندال ونهبهم ، باستثناء ثلاث مدن حصينة استطاعت أن تقاوم ، وهذه المدن هى . هيبورجيوس وكيرتا والعاصمة قرطاجنة .

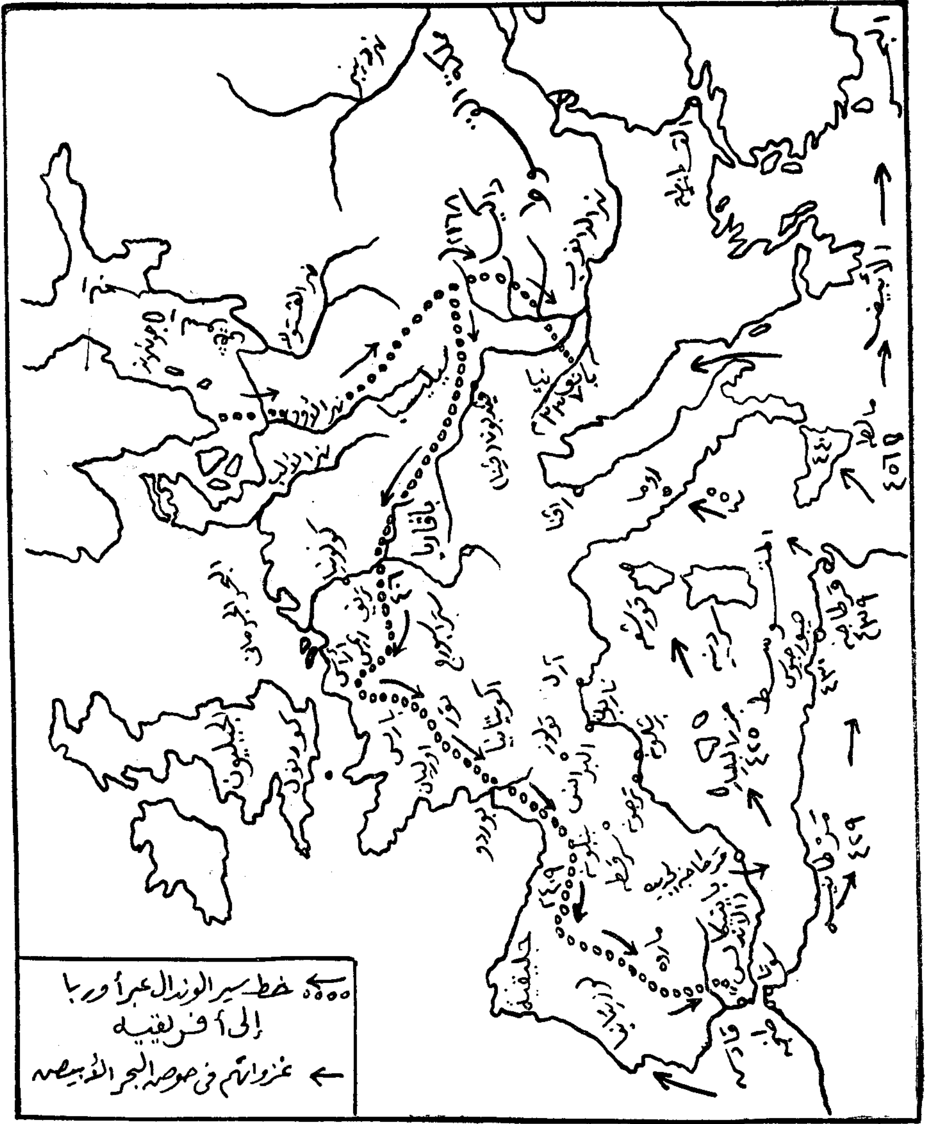
أما حصار هيبورجيوس ، فقد بدأ حوالى نهاية شهر مايو من عام ٤٣٠ م ، وتقع هذه المدينة غربى قرطاجنة على بعد حوالى ١٨٠ ميلاً ، ومكانها الحالى هو المدينة الفرنسية بونا Bona . وهيبو محل إقامة القديس أوغسطين ، كان عاكفاً على بحوثه وكتبه عندما وصلته أنباء الغزو الوندالى ، وسمع بما فعله الوندال من قتل ونهب وإبادة أشجار الفاكهة وتدمير الكنائس ، فى ولاية هادئه تبدو تربتها من كل جانب كأنها تبتسم للزائر على قول فيكتور فيتنسس؛ تقدم الأساقفة إلى أوغسطين ملتمسين نصحه وإرشاده فى هذه الأزمة الطاحنة ، وسألوه النصح فيما إذا كان ينبغى عليهم أن يهربوا إلى أحد الحصون القوية التى لم تخضع بعد

(١) Historian's Hist. P. 577 ; Gibbon PP. 330-31 ; Gautier PP. 167-173; Dieh' (Ch.) et Marçais (G.) Histoire du Moyen Age, (Paris, 1944), P. 39 ; Berthelotl op. cit., ;P. 68 ; Schimidt, L., op. cit., P. 305.

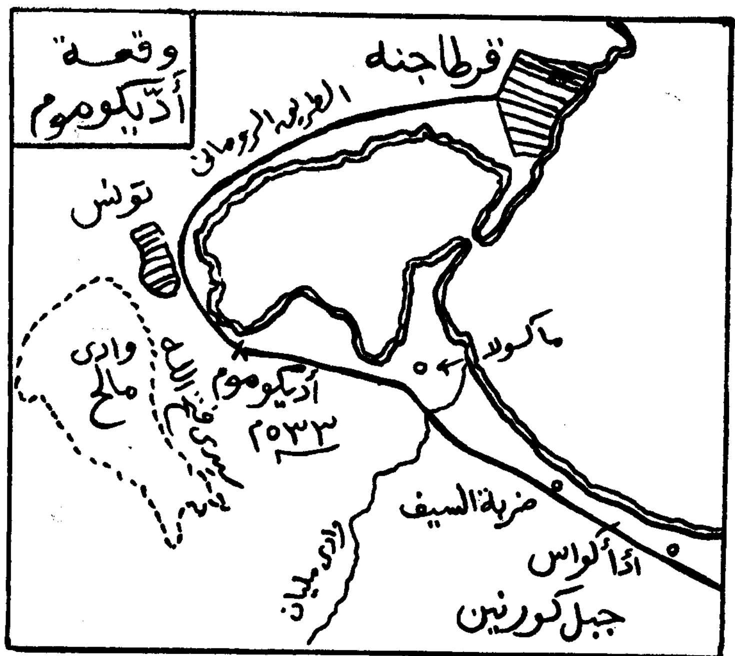


شمالى أفريقيه
الرومانى
فى القرن الخامس الميلادى
البحر الأبيض المتوسط
صقلية
قرطاجنة
طنجة
وهران
موريتانيا الطنجية
موريتانيا القيصرية
نوميديا
أفريقيه
بيزاكينا
خليج سرتس الصغير
طرابلس
لبده الكبرى
خليج سرتس الكبير
برقه
مارمريكا
الجيتوليون
الموريون (المغاربة)
الموريون والاميون
النسامونيون


مملكة الوندال الجرمانية
في
شمالي أفريقيه
٤٣٩ - ٥٣٤م
ooooo حدود أملاك الوندال
البحر الأبيض المتوسط
جزر البليار
قورشقة
سردينيه
صقلية
مالطة
قوصرة
قرطاجنة
أوتيكا
نوميديا
موريتانيا القيصرية
موريتانيا الطنجية
طنجة
سبتة
قادس
قرطبة
الأندلس
مملكة القوط الغربيين
مملكة القوط الشرقيين
روما
طرابلس
لبدة الكبرى
برقة
مارماريكا
صحراء



خط سير الوندال عبر أوربا
إلى أفريقية
غزواتهم في حوضة البحر الأبيض


وقعة
أدّيكوموم
قرطاجنه
الطريق الروماني
تونس
وادي
ملح
أديكوموم
ماكسولا
ضربة السيف
وادي مليان
جبل كورنين

للوندال ، أو يبقوا حيث هم ، يمارسون أعمالهم . فأجابهم القديس أوغسطين : « إبقوا مع شعبكم وشاركوهم فى المحن » ، غير أن الأساقفة لم يقوو على تحمل البقاء ؛ وقال قائلهم : وما الفائدة فى بقائنا ، سوى أن نرى الرجال تقتل والنساء تهتك ، والكنائس تحرق ، أما نحن فسوف يحل بنا التعذيب والتنكيل حتى نجبر على فتح خزائن الكنوز المخفية التى لا نملكها ! ؛ ثم أخذوا يرددون معنى قول المسيح : « إذا عذبوك فى مدينة ، فاهرب إلى المدينة الأخرى » .

أطرق أوغسطين بعض الوقت ، وفكر أن يحذو حذو البطريقين كبريان Cyprian وأثناسيوس ، اللذين اضطروا للتخلى عن منصبهما فترة من الزمن . ثم وافقهم بعد شىء من التردد ، غير أنه ما كاد ينتهى إلى هذه النتيجة حتى قدم عليه بوسيديوس Possidius أسقف كالاما Calama ، وهو الذى ندين له بالمعلومات عن هذه الأيام الأخيرة من حياة أستاذه أوغسطين ، قدم مع عدد من أساقفة البلاد القريبة من هيبو ، وأبوا إلا أن يشاركوا أستاذهم فى البقاء فى هيبو رغم الحصار ، وجلسوا أمام أقدام القديس العظيم ، منصتين إلى عذب حديثه الفياض ، الذى كان قبلا أحلى من العسل ، ولكنه اليوم ينم عن الخوف ، ظل الجميع يتناقشون فى هذه المحنة الكبرى ، ويتضرعون إلى الله أن يرفع عنهم هذا البلاء[١] .

وكان فى مدينة هيبو المحاصرة ، رجل آخر ، هو المسئول عن كل هذه الكوارث ، هو الكونت بونيفاس ، الذى يكاد الحزن والأسى والأسف يأكل قلبه ، إذ كان قد عاد إلى الصفاء مع بلاط رافنا . فقد كان من الغريب حقاً أن بطلاً شجاعاً مثل بونيفاس ، يفعل هذه الفعلة النكراء ، بعد كثير من الخدمات الجليلة التى أداها للامبراطورية ، فيستدعى البرابرة لتدمير الولاية التى عهد إليه

(١) Lot, La Fin., PP. 240-50; Gautier, PP. 177-179.

بقيادتها وسياستها (٤٢٢ — ٤٣٢م) ظل أصدقاء بونيفاس يعتقدون أن سلوكه الشائن يمكن أن يغتفر ويتـدارك ، فاتفقوا مع الأمبراطورة بلاسيديا وابنها ، فى غيبة ايتيوس ، على الدخول فى مفاوضة مع بونيفاس ، وقام داريوس Darius سفيراً من بلاط رافنا إلى كونت أفريقية . وداريوس من الضباط الرومان العظام ، ومعروف بحسن سمعته ؛ عقد اجتماعاً مع كونت أفريقية فى العاصمة قرطاجنـة ، ونوقشت الأحداث التى أدت إلى هذه النتيجة ، أظهر بونيفاس كتب ايتيوس إليه ؛ وأظهرت بلاسيديا على لسان سفيرها أسفها وندمها على موقفها من بونيفاس ، كما أظهر بونيفاس ندمه وتوبتـه ، ومن ثم عاد الصفاء(١) . وكان القـديس أوغسطين ، وقد علم بالمفاوضـة دون أن يبحث أسبابها الأصليـة ، قد بعث برسالة إلى بونيفاس ينصحه فيها بالقيام بواجبـه باعتباره مسيحياً ورعيه من رعايا الأمبراطورية(٢) .

غير أن الأمر أفلت من يده ، فلم يعد بإمكانه أن يربىء الصـدع الذى أصاب الأمبراطورية ، وعبثاً حاول بونيفاس إقناع جزريك بالجلاء عن أفريقية ، وبذلك فى كل ما استطاع من وعود وإيمـان ومواثيق ، ولـكن ملك الوندال العنيد لم يرحم ولم يلن ، فازدرى كل شرط أو عهد تقدم به بونيفاس ، ورفض فى عناد وإصرار أن ينزل عن شبر واحد مما فتحه من الأرض ، إذ كان يعتقد أن بونيفاس يخدعه .

لم يكن أمام كونت أفريقية سوى الانقلاب ضـد حليفه ، وحار به حرب حياة أو موت ، وحشد له جميع فرقه المدربة ، فضلا عن الحاميات الأقليمية ، ومع ذلك هزمه الوندال ، فلجأ إلى هيبو — عاصمة ملوك نوميديا القدماء — وحصنها واستعان فى حمايتها بفرقة من مرتزقة القوط ، وعجزت الأمبراطورية عن إمداده

---

(١) Gibbon, PP. 332-33 ; Hist. History, P. 577.

(٢) Gibbon, P. 333 N. 4

بمزيد من القوات »[١] . واستماتت بونيفاس فى القتـال والدفاع ؛ أدت بسالة بونيفاس ومن معه ، فضلاً عن أن البحر كان دائماً مفتوحاً أمام هيبو. لإمدادها بما يستطاع من مؤن ، أدى فى ذلك ، بالإضافة إلى صلوات القديس أوغسطين ، وعدم مهارة الوندال فى حصار المدن المسورة إلى صمود هيبو ومنعتها لمدة أربعـة عشر شهراً .

وفى الشهر الثالث من الحصـار مات القديس أوغسطين ، وكان يومئذ فى السادسة والسبعين من عمره ، وفى الأربعين من أسقفيته . وفى الشهر الرابع عشر من الحصار (يولية ٤٣١ م) ، اضطر الوندال بسبب الجوع والإرهاق، نتيجة تدمير المناطق المجاورة التى لم تعد قادرة على تموينهم ، إلى رفع الحصار ؛ فأغرى هذا بونيفاس ، بمنازلة الوندال فى وقعـة حربية ، مكشوفة ، لعله يقضى عليهم ، ويشفى غلة صدره ، وكانت أمداد قد وصلته من الأمبراطورية ، كذلك قد جاءته من بيزنطة بقيادة أعظم قادتها « أسبار » الألانى[٢] ، وكانت بلاسيديا قد توسلت إلى الأمبراطورية الشرقية لإنقاذها . تولى بونيفاس القيادة لجيشى الشرق والغرب ، غير أنه منى بهزيمة كبرى ، قررت فى الواقع مصير أفريقية نهائياً ؛ فعاد أسبار إلى بيزنطـة ، كما توجه بونيفاس إلى إيطـاليا حزيناً آسفاً يائساً ، وذلك بدعوة من الأمبراطورة ، ليلى منصب القائد العام للجيوش الرومانية بعد مقتل فيلـكس Felix[٣] .

والمعروف أن أيتيوس كان قد حرض الجنود ضد فيلـكس فقتلوه فى رافنا عام ٤٣٠ م ، وولى منصب القيادة العامة للجيوش الرومانية عن طريق الاغتصاب، ولـكن بلاسيديا ، رأت أن تسند هذا المنصب إلى الـكونت بونيفاس ، بعد أن ثبت وفاؤه وندمه وإخلاصه ، فاستدعته فى عام ٤٣١ م أو ٤٣٢ م ، وعينته

---

(١) Lot, Les Invasions, P. 88.

(٢) Gautier, PP. 179-183 ; C. Med. H. (Sh.), I, P. 90.

(٣) Gibbon, PP. 325-26 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89-90.

فى منصب القيادة العامة ، بدلاً من أيتيوس المغتصب ، فكان ذلك مدعاة لنشوب حرب أهلية بين بونيفاس وأيتيوس . كان أيتيوس قد عاد فى ذلك الوقت من الغال ومعه جيش من أحلافه البرابرة ، فالتقى به بونيفاس قرب مدينة ريمنى Rimini وأنزل به هزيمة منكرة ، فر بعدها أيتيوس إلى أحلافه من الهون ، ولكن الجرح الذى أصاب بونيفاس فى الوقعة ، لم يمهله طويلا ومات عام ٤٣٢م ، فخلفه فى القيادة العامة سباستيان Sebastian زوج إبنته، لكنه لم يلبث أن طرده أيتيوس فى العام التالى ، ومن ثم أضحى أيتيوس سيد الموقف والحاكم بأمره فى الغرب[١] . وهكذا غرقت الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، فى حمأة الحروب الأهلية والمنافسات على السلطة ، فى وقت هى أشد ما تكون فيه حاجة إلى تركيز جهودها وتوحيد قواتها ضد الوندال .

أما الوندال ، فقد تمكنوا من فتح هيبو ، بعد أن دكوا حصونها وأثخنوا القتل والأسر فى أهلها الذى هبوا للدفاع عنها على أثر رحيل بونيفاس .

واقد هدد انتصار الوندال ، الأمبراطورية الرومانية بشطريها ، لأن أفريقية لم تكن مجرد مخزن قمح للأمبراطوية الغربية، بل أن وقوع موانئها فى يد الوندال يهدد السيادة الرومانية فى البحر المتوسط ، ويحرمها من أحسن موانئها وأقوى حصونها[٢] .

وبعد هذه المرحلة العاصفة من حياة الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، وضح للبلاط الأمبراطورى فى رافنا استحالة اقتلاع الوندال من أفريقية ، كما وضح لجزريك من ناحية أخرى ، أهمية العمل على تثبيت فتوحه وتدعيمها ، وقد أدرك ملك الوندال صعوبة الاستيلاء على قرطاجنة العاصمة ، ليقظة المدافعين

---

(١) Hist. History, P. 580.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٧١ ، ٧٢
C. Med.;H. (Sh.), I, P. 90 ;

عنها ، ومناعة أسوارها وحصونها ؛ يضاف إلى ذلك أن جزريك كان فى حاجة إلى فترة هدوء ، لكى يدعم عرشه الذى بدأ يهتز تحته لسبب نزاع عائلى اشتد فى ذلك الوقت ، ذلك أن أبناء أخيه جوندرك ، دأبوا على الطعن فى خلق جزريك ، وتعييره بأصله ، إذ كان أخاً غير شرعى لجوندرك . حقيقة أعدمهم جزريك وأغرق أمهم فى نهر امبساجا Ampsaga ، إلا أن تذمراً عاماً دب بين قومه ، وأدى إلى قيام مؤامرات ضده ، فأخذ يقتل كل من يشك فى ولائه من الوندال حتى قيل أن ما أراقه من دماء قومه بيده ، يفوق ما أريق من دمائهم فى ميادين القتال . وهناك ثورة المغاربة والدوناتيين والكاثوليك ، كل ذلك هدده وهدد فتوحه الحديثة ، بل حدث أن عجز عن التقدم إلى قرطاجنة ، فاضطر إلى التقهقر بقواته ، وساعد أعداءه أن البحر كان مفتوحاً أمامهم دائماً ، مما يهدد بوصول الأساطيل الحربية من إيطاليا وأسبانيا ، فضلاً عن أنه قد تفكر بيزنطة فى معاودة الكرة والاشتراك مع رافنا فى قتال الوندال . وفى قلب نوميديا ، كانت مدينة كيرتا Cirta الحصينة — وهى قسطنطينة الحالية — لا تزال تقاوم بعنف وعناد . كل هذه الصعوبات ، جعلته يطلب الصلح وهو فى أوج انتصاره(١) ؛ بل أنه عرض استعداده لإرسال إبنه هنريك رهينة لضمان ولاء الوندال ، وطلب أن يعطى ما فتح ؛ والواقع أن جزريك لم يكن صادقاً فى عرضه بالولاء والقناعة بما فتح ، وإنما هى المشاكل الداخلية وحاجته إلى الراحة فترة ، هى التى دفعته إلى طلب المفاوضة والصلح(٢) .

أشارا أيتيوس على الإمبراطور وأمه بقبول المعاهدة مع الوندال ، فأرسل الإمبراطور سفيراً من قبله لمفاوضة الوندال ، وكان هذا السفير تريجتيوس Trigetius (٣) أتم السفير الأمبراطورى الصلح ووقع فى هيبو فى ١١ فبراير

---

(١) Gibbon, PP. 336-338 ; Gautier, PP. 184-186 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

(٢) Lot Les Invasions P. 89.

(٣) كان تريجيتوس أحد أعضاء الوفد الذى صحب البابا ليو فى عام ٤٥٢ فيما بعد لمقابلة أتيلا ملك الهون .

٤٣٥ م . وأهم شروطه : السماح للوندال بالبقاء فى ولايات أفريقيـة الرومانية كمعاهدين ، باستثناء منطقة قرطاجنه ، وأن يدفعوا جزية سنوية(١) .

والمهم فى هذه المعـاهدة أن الأمبراطورية الرومانية اعترفت رسمياً بشرعية استقرار الوندال فى أفريقية ، وأصدر الأمبراطور فالنتنيان الثالث عدة تشريعات إنسانية للتخفيف عن الرعايا الذين قاسوا من الوندال فى موريتانينا ونوميديا ، فأعفاهم من ديونهم ، وأنقص الجزية المفروضة عليهم إلى الثمن ، ومنحهم حق استئناف الأحكام الصادرة من حكامهم إلى روما(٢) . أما تنفيذ شروط المعاهدة فلم يكن تاماً ، فلم يدفع جزريك الجزية التى اعترف بها ، كما أن الرهينة هرب ، وحنث ملك الوندال فى إيمانه بعدم الاعتداء .

أخذ جزريك من مركزه الجـديد المعترف به فى موريتـانينا وقيصرية استفنسس(٣) نقطة وثوب على ما بقى من أملاك الرومان فى شمالى أفريقية ، كما جعله مركزاً للقرصنة فى البحر الأبيض .

وقبل أن تنقضى خمس سنوات على توقيع المعاهـدة ، حتى قام جزريك واقتحم قرطاجنة عنوة ، ونهبها واستباحها فى ١٩ أكتوبر ٤٣٩م ، فقد تراخت يقظة الحامية الرومانية فيها خلال تلك الفترة ، استولى على قرطاجنة بدون حرب تذكر ، فظفر بذلك بأحسن ميناء فى غربى البحر الأبيض ، كما ظفر بحقول القمح التى طالما طمع فيها منذ أمد طويل(٤). واتخذها عاصمة لمملكته فى شمالى أفريقية ، وتعد قرطاجنة ، فى نظر المعاصرين « روما العالم الأفريقى »(٥) .

---

(١) Deanesly P. 76 ; Hodgkin PP. 248-50; Hist. History PP. 579, 599.

(٢) Gibbon, P. 337, N. 2.

(٣) أنظر الخريطة

(٤) Moss, PP. 48-50 ; Gautier, PP. 189-191 ; Gibbon, PP. 338-339 ; C. Med. H., P. 91 ; Schmidt, op. cit., P. 306.

(٥) Gibbon, P. 338 ; Deanesly, P. 76 ; Hodgkin, PP. 250-51.

وقد تعرض سكان قرطاجنـة لأقسى أنواع الاضطهاد والعنف ، إذ أمر جزريك جميع السكان باظهار ما لديهم من ذهب وفضة وجواهر وأثاث، وتسليم ذلك كله إلى مندوبيه ، ومن يحـاول أن يخفى شيئاً ، يعاقب بالقتل والتعذيب باعتباره خائناً للدولة ، ولقى النبلاء وأعضاء السناتو أشد أنواع الاضطهاد والتشريد، وهرب الـكثير منهم لاجئاً إلى إيطاليا أو الولايات الشرقيـة . ومن هؤلاء كايلستيان Caelestian عضو السناتو النبيل فى قرطاجنة ، اضطر إلى التسول هو وزوجته وأسرته وخـدمه فى البلاد الأجنبية ، كذلك مارى Maria ابنة أحد نبلاء قرطاجنـة ، افتداها بعض التجار السوريين من الوندال ، لـكنهم باعوها بعد ذلك فى بلادهم ، حتى قيض الله لها بعض الأيدى الرحيمـة فأنقذتها[١] . وهكـذا ، كانت شنائع الوندال فى قرطاجنـة ، ولم تستطع الأمبراطورية الرومانية أن تفعل شيئاً .

أضحى الوندال سـادة أفريقية الرومانية ، ويبدو أن جزريك اتخذ لقب « ملك » منذ استيلائه على قرطاجنة ، بدليل أن المؤرخ المعاصر فـكتور فيتنسس V. Vitensis قال : إن هجوم جزريك على روما (٤٥٥) كان فى السنة الخامسة عشرة من حكمه ، كذلك أرخ له بروكبيوس وبروسبر ، باعتباره ملكاً منذ ذلك الحادث ؛ ثم أن القرارات والمراسيم التى أصدرها جزريك ، على أثر استيلائه على قرطاجنة كانت تنعته بلقب « ملك الوندال والآلان » وأحياناً « ملك قرطاجنة » أو « ملك إفريقية » ؛ ويقول المؤرخ البيزنطى ثيوفانيز Theophanes : « لقب جزريك نفسه ملك البر والبحر[٢] » .

* * *

وبعد أن ثبت جزريك حكم الوندال فى هيبورجيوس وقرطاجنة ، وجه

---

(١) Ibid, PP. 339-40 ; Hist. History, P. 579.

(٢) Oman, PP. 7-8.

همته لبناء السفن ، رغم أن الوندال ، كمعظم غيرهم من البرابرة لم يمرنوا على بنـاء السفن ، إلا أنهم أفادوا من نواة البحرية التى كان بونيفاس قد أمدهم بها سابقاً ، ومن ثم صار جزريك يمتلك أكبر قوة بحرية ضاربة فى البحر المتوسط(١) .
وأمضى جزريك بقية حياته ، حتى وفاته عام ٤٧٧ م ، فى أعمال القرصنة ضد البلاد المساحلة للبحر الأبيض ، فتعرضت لغزوه ونهبه : إيطاليا وصقلية ومالطة وسواحل أسبانيا المطلة على المحيط الأطلسى ، بل وصلت غزوات الوندال البحرية إلى ســاحل الليريا وبلاد البلوبونيز وجزر بحر ايجه ، وحتى الأسكندرية مفتاح البحر الأبيض(٢) .

على أن البلاد التى تعرضت لهجوم القراصنة الوندال ، لم تـكن مقصودة بعينها أو لذواتها ، إذ لم يـكن هناك هدف معين فى الهجوم على بلد دون آخر ، وإنما الهدف العام هو الحصول على المغنم بجانب الانتقام ممن عرفهم الوندال واشتبكوا معهم ، وهم الرومان بشطريهم فى الشرق والغرب . ويقال إن رجال البحرية الوندالية كانوا لايعرفون الجهة التى سوف يهاجمونها ، فحينما تستعد السفن للابحار من ميناء قرطاجنة ، جرت العادة ، أن ينزل جزريك من قصره الذى يقيم فيه ، وكان هذا القصر قبلاً مقر حكام الولاية القنصلية الرومانية ، فيسأله ربان السفن عن أوامره ، وإلى أى اتجاه يسيرون فيه ، فلا يجهد الملك جزريك نفسه طويلاً فى تحديد الهدف ، بل يجيبه على الفور : «دعنا نذهب إلى مساكن أولئك الذين حلت عليهم لعنة الله ، ثم يترك الرياح والأمواج توجهه حيث شاءت(٣) .

والمرة الثانية ، وبعد نحو ستة قرون ، يبرز اسم قرطاجنة مخيفاً مرعباً لسكان ضفاف التيبر (روما) ، حتى أن الشعراء المعاصرين وتبعهم المتأخرون منهم ،

---

(١) Guaiter, PP. 217-21.
(٢) Deanesly, P. 77.
(٣) Hodgkin, PP. 251-52.

وصفوا غزوات جزريك لإيطاليا بأنها صورة أخرى من صور الحروب البونية ، واعتبروها حرباً بونية رابعة ، يقول سيدونيوس .

"Heu Facinus ! in bella iterum quartosque labores Perfida Eliseae crudescunt classica Byrsae".(١)

وخلال السنوات التى تلت سقوط قرطاجنة مباشرة ، أضحت جزيرة صقلية الهدف الرئيسى لغزوات الوندال ، لشهرتها فى إنتاج القمح(٢) . ففى عام ٤٤٠ م اقتحم جزريك هذه الجزيرة ، وعاث فيها نهباً وتدميراً ، واضطر للوقوف فترة قصيرة والعودة إلى أفريقية ، حين بلغه نزول القائد الرومانى الشجاع سباستيان زوج ابنة بونيفاس ، فلما علم أن هذا الضابط ما جاء محارباً ، ولكن جاء لاجئاً من اضطهاد ايتيوس ، استأنف عملياته الحربية فى صقلية . وفشلت الحملة البيزنطية التى أرسلها الأمبراطور الشرقى تيودسيوس الثانى فى عام ٤٤١ م ، لمعاونة الأمبراطورية الغربية فى حروبها ضد الوندال ، ورجع فشلها إلى اختلاف كلمة قادتها ، من ناحية ، واضطرار بيزنطة لإعادتها عام ٤٤٢ م من ناحية أخرى لمواجهة خطر أتيلا ملك الهون . وبذلك ضاعت الفرصة الوحيدة لإعادة أفريقية ، خلال انشغال جزريك فى صقلية(٣) .

حينئذ شعر الأمبراطور فالنتنيان ومستشاره أيتيوس باليأس من ناحية مساعدة بيزنطة ، وبالعجز عن مقاومة الوندال ، فاضطرا لعقد معاهدة فى عام ٤٤٢ م مع جزريك سلم بمقتضاها صقلية أو جزءاً كبيراً منها الوندال ، واعترفت المعاهدة كذلك بحقوق الوندال فى مملكتهم بأفريقية كمعاهدين . ولم يكن فى يد الرومان من ساحل أفريقية الشمالى سوى الجزء الأوسط والشرقى من الساحل — الجزائر الحالية تقريباً — وطرابلس(٤) .

---

(١) (1) Hodgkin, P. 253 ; Gautier, P. 217.

(٢) Deanesly, P. 76.

(٣) Hodgkin, P. 254 ; Gautier, PP. 221-225.

(٤) Villari, PP. 99-101 Boissonnade, P. 27 ; Gautier, PP. 226-32.

ولضعف الأمبراطورية الغربية ، ظل ايتيوس يرضى مطامع ملك الوندال ، لكى يحول دون اعتداءات جديدة ، بل اقترح المستشار الرومانى أن يتزوج هنريك أكبر أبناء جزريك من ابنة فالنتنيان الثالث الطفلة ؛ وكان هذا الطعم قد أغرى ملك الوندال بإعادة زوجة ابنه السابقة ، وهى ابنة ثيودريك الأول ملك القوط الغربيين فى عام ٤٤٥م ؛ أعادها إلى أبيها فى حالة سيئة مشينسة ، إذ قطع أذنيها وجدع أنفها ، بحجة أنها تآمرت على ابنه بدس السم له(١) . فكان هذا الحادث إهانة بالغة ، فضلا عن كونه نقضاً لاتفاقية سابقة بين القوط والوندال ، مما أثار القوط للانتقام من الوندال(٢) .

ومما لاشك فيه ، أن جزيرة صقلية ، أصبحت فى ذلك الوقت ، أو بعده بقليل ، جزءاً من أملاك الوندال المعترف بها ؛ ومن المحتمل ، أنه قبيل وفاة جزريك فى عام ٤٧٧م . كان الجزء الأكبر من الجزيرة ، قد تنازل عنه الوندال لأدواكر Odoacr الذى شل عرش أباطرة الغرب وأنهى الأمبراطورية الغربية منذ عام ٤٧٦م ، وكان هذا التنازل نظير جزية يدفعها أدواكر لملك الوندال(٣) .

الخلاصة ، لم تعد صقلية جزءاً من إيطاليا ؛ وهى التى ارتبطت بها منذ أقدم عصور التاريخ ، فضلاً عن الارتباط الجغرافى ؛ ورغم توقيع المعاهدة ، فلم يكف جزريك عن الغزوات وأعمال القراصنة ، إذ لم تزل لديه المبررات الكافية للغزو فى كل ربيع ، وذلك للنيل من البلاد التى « حلت عليها لعنة الله(٤) » .

---

(١) Hist. History, P. 582.

(٢) دولة القوط الغربيين ص ٩١ ؛ C. Med. H. I, P. 91 ; Bradley, H., The Goths, PP. 110-111.

(٣) إبراهيم طرخان نهاية : الأمبراطورية الغربية (مجلة الآداب – جامعة القاهرة – العدد التذكارى ١٩٦٢) ; Hodgkin, P. 255, N.G., PP. 503-504.

(٤) Hodgkin, P. 255.

أما جزائر البحر الأبيض الأخرى ، مثل سردينيا وقورشقه وجزر البليار ، فالمعروف أن سيطرة الوندال عليها . كانت أسبق وأقوى من سيطرتهم على صقلية ، بل أن هذه الجزائر كانت أكثر ارتباطاً بمملكة الوندال من صقلية .

وبعد سبع وعشرين سنة من دخول البرابرة الوندال أفريقية ، وبعد اتخاذهم قرطاجنة عاصمة لدولتهم ، بستة عشر عاماً ، استصرخت الأرملة أيودكسيا Eudoxia ، عقب مقتل زوجها الأمبراطور فالنتنيان الثالث ، فى ١٦ مارس من عام ٤٥٥ م ، بنحو ثلاثة شهور ، طالبة تدخل جزريك ملك الوندال لمساعدتها ، فقد حدث أن تخلص الأمبراطور من ايتيوس ، فانتقم أنصاره بقتل الأمبراطور(١). ولم يتحرك أحد للدفاع عن الأمبراطور ، مما يدل على أنه كان كريهاً لشعبه وحكومته ، وبمقتله انقرض فرع تيودسيوس العظيم ، وانتخب الناس والجيش بترونيوس ماكسيموس Petr-Maximus عضو السناتو وكان فى السنين من عمره فى ذلك الوقت ، فأجبر أيودكسيا على الزواج منه ، وعلى تزويج ابنه قيصر بلاديوس C. Palladius من إحدى بناتها لكى يضمن العرش لابنه من بعده ، فضلاً عن تدعيم سلطته ، ولكنه فشل فى كسب قلب الأمبراطورة الحزينة وفى الاحتفاظ بعرشه . ومن ناحية أخرى لم يفعل شيئاً نحو قتلة الأمبراطور فالنتنيان ، بل على العكس قربهم منه ، مما يحمل على الظن أن له يداً فى مقتل سلفه(٢) . أو أنه كان يخشى بطش البرابرة ، أو يخشى مصيراً مثل مصير فالنتنيان .

لم تكف ايودكسيا عن الحزن على زوجها ، وكانت معروفة بأنها أجمل

---

(١) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى بحث : نهاية الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، (مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة العدد التذكارى ١٩٦٢) .

(٢) Villari, P. 123.

نساء روما ، وكانت تحب زوجها رغم سلوكه الشخصى وخيانته الزوجية ، شعرت بالحزن والعار لزواجها من كهل وهى لم تتجاوز الرابعة والثلاثين من عمرها[١] . وفقدت كل أمل فى مساعدة القسم الشرقى من الأمبراطورية ، إذ كانت عمتها بلكاريا Pulcharia ، ابنة الأمبراطور اركاديوس ، قد ماتت فى بيزنطة منذ عام ٤٥٣ م ، وهى آخر فرع تيودسيوس فى الشرق ، وكانت تحكم فى الشرق باسم أخيها تيودسيوس الثانى . لم تجد ايودكسيا بدأ من الاستغاثة بملك الوندال ، ووصل سفيرها سراً إلى قرطاجنة ، حيث أبدى استعداده التام لغزو المدينة الخالدة ، وسيدة المدن ، تحت ستار نصرة أسرة فالنتنيان .

ولما شاع فى روما نبأ قدوم الوندال ، هرب نبلاء المدينة ، ولم يفعل الأمبراطور ماكسيموس شيئاً للدفاع أو المقاومة ، بل أصدر مرسوماً أباح فيه الهروب لمن يريد مغادرة المدينة ، والواقع أنه كان فى قصره يمهد لنفسه الطريق للهرب ، غير أن المخلصين من أبناء روما ، غضبوا من هذا التصرف العاجز ، بعد أن وضعوا فى الأمبراطور ثقتهم وتوقعوا أن يقوم بأى إجراء لمقابلة هذه الكارثة ، التى كان سبباً فيها ، ثار الجنود وحال خدم القصر وحراسه دون فرار الأمبراطور ، ودخلوا عليه وقطعوه بسيوفهم ، وجروه فى شوارع المدينة ، فشاركهم الناس فى التمثيل ، ثم ألقوه فى نهر التيبر ، حتى لا تقام له طقوس الدفن[٢] . وقع هذا الحادث فى ٣١ مايو ٤٥٥ م ، أى بعد ولايته العرش بأقل من ثلاثة شهور[٣] .

لم يكن جزريك بحاجة إلى رسالة من ايودكسيا ، تدعوه فيها لغزو روما ، فهو يتحرق شوقاً لمداهمة المدينة الخالدة ، وهى التى « حلت عليها اللعنة » فى هذه المرة . وسرعان ماشوهد أسطول الوندال فى أوستيا Qstia ميناء روما ، وذلك

---

(١) Ibid.

(٢) Villari, P. 125.

(٣) Hist. History, P. 600 ; Hodgkin, PP. 195-205.

فى اليوم الثالث بعد مقتل ماكسيموس (٢ يونية)(١) . تقدم جزريك نحو روما بحشوده من الوندال والمغاربة(٢) . فلم يسع البابا ليو الأول إلا الخروج على رأس وفد من رجال الدين ، بعد أن ألقى خطبة حماسية فى كنيسة القديس بطرس وكان يرجو أن يفعل شيئاً لحماية المدينة ، كما نجح من قبل عندما التقى بملك الهون أتيلا على ضفاف نهر منشيو Mincio منذ ثلاث سنوات . كان نجاح البابا ليو محدوداً ، كما كان الشأن فى مقابلته السابقة مع الهون(٣) . والواقع إن جزريك لم يهدف من غزوته هذه إلى شىء سوى النهب والغنيمة ، ولم يطمع فى السلطان أو الحكم . قبل جزريك أن يحقن دماء أهل المدينة ، وألا يحرق المبانى العامة أو الخاصة ، كذلك وافق ، بعد كثير من التردد ، على ألا يعذب أحداً ليعترف بكنوز ثروة مخبوءة ؛ غير أن أوامر جزريك لرجاله لم تكن جادة ، أو أنها لم تنفذ .

دخل ملك الوندال مدينة روما ، بعد هذه المقابلة ممتطياً صهوة جواده ، وتجول فى هدوء داخل شوارعها ، وظل بها خمسة عشر يوماً ، تعرضت فيها روما لشر أنواع النهب والسلب والاستباحة ، فلم يتقيد كثيراً بما اتفق عليه مع البابا ، نهب ما استطاع الحصول عليه من ذهب وفضة ونحاس من القصر الأمبراطورى ، ونهب الكنائس ، فاستولى على ما فيها من كنوز وجواهر وأوانى ، وانتزع نصف سقف الكابتيول وهو معبد الإله جوبتير كبير آلهة الرومان ، وكان مصنوعاً من أجود أنواع البرونز ومغطى بطبقة سميكة من الذهب فى غاية الروعة الفنية ، ويحتمل أن الوندال ظنوا فى بادىء الأمر أن السقف كله مصنوع من الذهب فلما بدأوا ينتزعونه ، وجدوه من النحاس ، ولعل هذا هو سبب اكتفائهم بنصفه ، استولوا كذلك على أروع التماثيل التى وجدوها ، غير أن السفينة التى

---

(١) Gautier, PP. 232-33

(٢) Hist. History; P. 601.

(٣) Villari, P. 125.

شحنت فيها هذه التماثيل ، غرقت بها فى عودتها ، فاختفى بذلك أجمل التماثيل لآلهة الرومان مثل الإلهة فون Faun آلهة الحقول نيمف Nymph إلهة الغابات وغيرها(١) .

ورغم شنائع الوندال فى البلاد التى غزوها ، فإنهم لم يشنوا حرباً مبيدة ضد العمارة والفنون ، وكل ما كان يهمهم هو الذهب والفضة والأحجار الكريمة ؛ ومع ما فعلوه هذه المرة فى روما ، فإنهم لم يفعلوا الكثير بالمقارنة بما فعله غيرهم مثل القوط الشرقيين والبيزنطيين واللومبارد ، وعلى رأس المدمرين جميعاً النورمان ، بل البارونات الرومان أنفسهم فى العصور الوسطى ، ولذا لايلام الوندال ، على الرغم من المثل الدائر بالوندله 'Vandalism' أو التخريب ، فإنهم أقل إجراماً من غيرهم فى تدمير الآثار الفنية .

كان من بين المنهوبات التى نقلت إلى قرطاجنة الأوانى المقدسة الخاصة بالمعبد اليهودى ، مثل المنضدة الذهبية والشمعدان الذهبى ذى السبعة فروع ويؤكد بروكبيوس سكرتير بلزاريوس ، أنه عند القضاء على الوندال فيما بعد ، عثر فى قصر جليمر Gelimer آخر ملوك الوندال ، على هذه الأوانى وعلى الكثير من الجواهر والتحف مثل السروج الذهبية ، والعربات المذهبة المخصصة لسيدات القصر ، وكميات كبيرة من الذهب ، والأحجار الكريمة . وهذه كلها حملت إلى بيزنطة وأضفت على انتصار بلزاريوس روعة وبهاء(٢) .

---

(١) Schmidt, op. cit., P. 308 ; Historian's Hist., P. 601 ; Hodgkin, PP. 284-86 ; Guaiter, PP. 235-38.

(٢) نقلت الأوانى المقدسة الخاصة بالمعبد اليهودى ثانيا إلى القدس ، حيث وضعت فى الكنائس المسيحية ، وعندما رآها أحد اليهود ، علق بقوله لأحد أصدقاء الأمبراطور ، بأنها شؤم على المكان الذى تحل به ، فقد أدى وجودها فى روما إلى غزو الوندال لها ، ثم أدى نقلها إلى قرطاجنة إلى القضاء على الوندال أنفسهم . وهى فى ذلك تشبه وجود « سفط موسى » فى مدن فلسطين (Hodgkin, P. 286. أنظر ما يلى ; Davis, P. 23

أخذ جزريك فى عودته من روما عدداً كبيراً من الأسرى ، يقدر ببضعة آلاف من الذكور والأناث ، ومن بين الأسرى أيودكسيا — وهى أرملة اثنين من الأباطرة ، وابنة أمبراطور ثالث (تيودسيوس الثانى) — وكذلك أسر ابنتيها أيودكسيا وبلاسيديا Placidia ، ويبدو أنه كان فى أسر الأمبراطورة وابنتيها حماية لهن من غضب الرومان ، حتى لايقعن فريسة لأهل روما الساخطين. ومن بين الأسرى كذلك جودنتيوس Gudentius بن ايتيوس ، وكان هذا الابن قد تقدم من قبل للزواج من إحدى ابنتى الأمبراطور . زوج جزريك أيودكسيا الأبنة ، وهى الكبرى ، من هنريك أكبر أبنائه ، فى نفس الشهر (يونية ٤٥٥)(١) ، أما أيودكسيا الأم والبنت الثانية ، فعاملهما ملك الوندال بكل احترام ورعاية ، ووفر لهما الحياة الكريمة فى القصر الملكى بقرطاجنة ، وظل أمرهن على هذا النحو لمدة سبع سنوات(٢) .

وضم الأسرى عدداً كبيراً من المدنيين وأرباب الحرف وأصحاب الكفاءات النادرة ، وقد وزع هؤلاء الأسرى رقيقاً على رجاله ، ولذا لابد وأن الدماء الرومانية قد امتزجت بالسكان فى أفريقية الشمالية ، وكثير من سكان جبال الأطلس الحاليين ، لابد وأنهم من سلالة هذا المزيج ؛ ومع أن الأسرى الرومان لم يلقوا الكثير من سوء المعاملة من جانب الوندال ، إلا أن ديوجراتياس Diogratias أسقف قرطاجنة ، بذل ما استطاع من جهد لمساعدة الأسرى والتخفيف عنهم ، إذ باع جميع الأوانى الذهبية ومجوهرات الكنيسة وكنوزها ، وافتدى كثيراً من الأسرى ، ولكى لا تنفصم الروابط الأسرية ، نتيجة افتراق الكثير من هؤلاء الأسرى عن عائلاتهم ، إذ كان جزريك فى توزيعه الأسرى

---

(١) Lot, Les Invasions, P. 115 ; Deanesly, P. 77 ; Dill, PP. 335-6 ; Souttar, P. 328.

(٢) أعاد جزريك أيودكسيا الأم وإبنتها بلاسيديا إلى القسطنطينية ، تحت إلحاح الأمبراطور الشرق ليو ، وفى بيزنطة تزوجت بلاسيديا من أوليبريوس Olbyrius عضو السناتو ، وهو الذى صار إمبراطوراً على الغرب فيما بعد .

على قومه ، كان يفرق بين الزوجة وزوجها وأطفالها وأبويها ، عمل أسقف قرطاجنة على توفير المكان الصالح لجميع أفراد عائلات الأسرى ، ممن لم يستطع افتداءه ، وذلك بأفراد كتدرائيتين لهم ، وحول هاتين الكدرائيتين إلى مستشفيات وأعد فيهما الفراش وجميع ما يلزم لإقامة الأسرى ، وتولى بنفسه الإشراف عليهم ومواساتهم ، فكان يزورهم مرتين فى كل يوم ، ويشرف على طعامهم ، ويصحب الأطباء لمعالجتهم ، وخلال قيامه بهذا العمل العظيم ، مات مأسوفاً عليه ، فحزن الأسرى عليه أعمق الحزن ، ودفن فى مكان سرى ، حتى لاتتعرض جثته إلى السرقة على هواة جمع آثار القديسيين[١] .

* * *

وهكذا قامت دولة الوندال فى شمال أفريقية ، وعجزت الأمبراطورية الرومانية بشطريها عن صد أخطارهم أواقتلاعهم من أفريقية ، وظلت الأمبراطورية الغربية فى الفترة ما بين ٤٥٦ م ٤٧٢ م فى اضطراب داخلى متصل الحلقات ، حتى سقطت نهائياً فى عام ٤٧٦ م[٢] .

— ٤ —

بدأ حكم الوندال فى شمالى أفريقية ،من العاصمة قرطاجنة عام ٤٣٩م ؛ وكانت الأمبراطوية الرومانيــة فى الغرب ، قد اعترفت بوصفهم « معاهدين »Foedrati منذ عام ٤٣٥ م ثم اعترفت باستقلالهم فى عام ٤٤٢ م[٣] .

وحكومة الوندال ملكية استبدادية ، وظلت كذلك زمن جزريك وخلفائه من بعده ، حتى زال ملكهم من أفريقية ، والملاحظ أن هذا النظام الاستبدادى، لم يكن سائداً عند الجرمان الآخرين الذين أخذوا بنظام الملكية ، مثل القوط

---

(١) Hodgkin, PP. 286-89 ; Hist. History, P. 602 ; Villari, P. 127.

(٢) نهاية الأمبراطورية الرومانية فى الغرب .

(٣) Deanesly, P. 78.

والفرنجة ، ولذا فإن حكومة الوندال أقرب ما تكون إلى حكم الطغاة ، الذين عرفوا فى تاريخ الإغريق القديم ، حقيقة تشابهت حكومة الوندال مع بعض حكومات الجرمان ، من حيث إن الملكية محصورة فى بيت معين ، ذى أصول مقدسة ، إلا أن سلطة المجالس الملكية كانت تختلف ، فلم يكن لمجلس نبلاء الوندال من السلطة والوزن مثلما كان لمجلس نبلاء الفرنجة أو مجلس طليطلة القوطى[1] .

انحصرت الملكية الوندالية فى بيت الأسدينين Asdingi ، وهو البيت الذى انحدر منه الملك جزريك وخلفاؤه . ومن دلائل قوة الملكية وطغيانها، أن جزريك، أقدر البرابرة فى عصره[2] ، قد طرح ذلك التقليد الذى نشأ بين حكومات البرابرة الأخرى ، وهو تقسيم الملك أنصبة كأنه إرث ، بين الأبناء ، مما كان من أخطر معاول الهدم لتلك الملكيات بعد زوال مؤسسيها . لقد أوصى جزريك ولى عهده، بأن يكون الحاكم الأعلى ملكاً على جميع أملاك الوندال كتلة واحده غير مجزأة ، فدلت هذه القاعدة على حصافته السياسية ، كما قوبلت قاعدة ولاية العرش لأكبر أعضاء الأسرة المالكة ، بالرضا التام ، إذ ليس من الضرورى أن يكون أكبر أبناء الملك ، وهذا تقليد تيوتونى قديم[3] .

غير أن هذا التقليد أدى إلى بعض المشاكل حول وراثة العرش من بعد جزريك ، إذ حدث أن حاول هنريك أكبر أبناء جزريك وخليفته من بعده ، أن يولى إبنه من بعده، ومن أجل ذلك ذبح أخوته وأبناءهم باستثناء اثنين هما ولدا أخيه الأصغر جنزو Genzo ، فقد تمكن هذان الإبنان من الهرب[4] .

(١) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٣٢ — ١٤١ .
(٢) فشر (نفسه) ص ٣٠ .
(٣) Deanesly, P. 77 ; Oman, P. 11 ; Schmidt, P. 318.
(٤) Oman, P. 11.

وربما كان من أسباب قوة المملكية الوندالية ، أن منابع الثروة عند الوندال ، لم تعتمد اعتماداً كلياً على الأرض ، أو على أعمال وخدمات طبقة من المحاربين يحاربون أساساً على الأرض ، وذلك على عكس الفرنجة الذين اتجهوا إلى الأرض ، على أثر استقرارهم فى الغال ، بعد فترة الاضطرابات والفتوح ، فاعتمدوا على ماتغله أراضيهم وأملاكهم ، وكذلك على ما يجبونه من مكوس وضرائب على التجارة ، أما الوندال فاعتمدوا بصفة أساسية على ما يحصلون عليه من أسلاب ومغانم عن طريق القرصنة ، إذ استولوا على كثير من السفن الإغريقية ، وأصبح لهم أسطول بحرى ضخم يتحكم فى البحر المتوسط ، حتى أضحت روما ، لأول مرة ، منذ الحرب البونية الثالثة فى القرن الثالث قبل الميلاد تحت ، رحمة بحرية تفوقها قوة وضخامة[١] واستطاعت البحرية الوندالية أن تنتزع منها صقلية وسردينية وقورشقة وجزر البليار وغيرها ، أدرك الوندال أن النهب المباشر أسهل منالا وأسرع ربحاً وأكثره ، وإن لم يكن أبقاه ، وأهملوا العمل الأصيل فى احتكار مصادر هذا الربح مثلا ، كتجارة البحر المتوسط ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى القضاء على هذه التجارة ، وعلى الوندال أنفسهم . ومن ناحية أخرى ، أدرك ملك الوندال أن رعايا ، أو أتباعاً أثرياء ، عن طريق القرصنة ، أقل خطراً على عرشه وسلطانه من منافسات طبقة من ملاك الأراضى والنبلاء المحاربين[٢] .

وفيما يتعلق بالجهاز الإدارى فى دولة الوندال ، ترك جزريك الشىء الكثير منه إلى الموظفين الرومان لخبرتهم الطويلة فى الحكم والإدارة ، ومن غير شك كانت رغبات الوندال وتدخل الملك واضحة فى جميع الشؤون ، فعمل كبار النبلاء وجميع الموظفين ، كل فى اختصاصه ، داخل إطار الطاعة والخضوع دون أدنى معارضة أو احتجاج ، مهما كانت أوامر الملك[٣] . أبقى جزريك على فروع الإدارة

(١) Deanesly, PP. 78-9.
(٢) Hodgkin, P. 263.
(٣) Oman, PP. 28-30 ; Hodgkin, P. 263 ; Stephenson, PP. 52, 78.

اليومية فى أيدى البيروقراطية الرومانية ، وهذه مما لا طاقة للجرمان بالصبر عليها وممارستها وتنظيمها ، وهذا هو السبب فى أننا نجد ، تحت حكم الوندال ، حاكما على قرطاجنة ، بلقب نائب قنصل Proconsul ، وكذلك حاكم الأقليم فى حكومة الوندال بلقب Primarius Provinciae ، وهناك رئيس الحجاب أو رئيس الديوان الملكى : Praepositus sacri cubiculi. أما الاختصاصات التفصيلية المحددة لهؤلاء الموظفين ، فغير واضحة زمن الوندال(١) ، إذ المعروف أن الوندال لم يأخذوا بالحضارة الرومانية قبل دخولهم أفريقية ، ولم يتشبعوا بها وهم فى أفريقية(٢).

أما سياسة الوندال نحو الأراضى التى فتحوها فى أفريقية ، فلم تتقيد بالمبدأ القديم الذى طبق فى الأمبراطورية الرومانية لصالح البرابرة المتسلطين ، وهو مصادرة ⅓ أو ⅔ الأراضى للمعاهدين منهم . كضيافة إجبارية لهم وقد فعل ذلك ، أدواكر وثيودريك فى إيطاليا ولكنهم صادروا معظم الأراضى واستولوا عليها ووزعوها بينهم(٣) ، وبدأ جزريك هذه العملية ، وأكملها بعد فتح قرطاجنة مباشرة . والملاحظ ، أنه بمقتضى معاهدة ٤٤٢م ، كانت هناك بعض الأراضى التى ظلت بيد الأمبراطورية فى طرابلس وموريتانيا ولكن ملك الوندال أكمل استيلاءه على جميع هذه الأراضى ، عقب وفاة الأمبراطور فالنتنيان الثالث(٤) .

اختار جزريك أجود الأراضى المملوكة لكبار أهل أفريقية الرومانية من النبلاء والأشراف والأثرياء ، ووزعها وأصحابها رقيقاً Servi على ولديه هنريك وجنزونى Genzoni . ومعنى ذلك أنه احتفظ لنفسه ولأولاده بولايات : بيزاكينا وأباريتان Abaritan وجيتوليا Gaetulia وجزء من نوميديا ، وهذه هى أجود الأراضى

---

(١) Hodgkin, P. 263; Oman, P. 28.

(٢) Chapot, P. 466.

(٣) Deanesly, P. 78.

(٤) Hodgkin, P. 263; Oman, P. 8.

في شمالى أفريقية ، ومن هذه الأراضى المنتخبة تكون الخاص الملكى أوالدومين Dominicum ، وهى على حد تعبير المؤرخ فيكتور فيتنسس : « أرض سيدنا جزريك : "Gaisericus, Dominicus noster . أى أن هـذا الدومين الضخم يمثل تقريباً كل الولايتين الكبيرتين ، نوميـديا و بيزا كينا و بعض أجزاء الولاية القنصلية زوجتانا Zeugitana [(١)] . وهـذه الولاية الأخيرة أصغر الولايات ، إذ تبلغ نحو مائة ميل فى خمسين ميل ، لـكنها من غير شك أغنى الولايات ، وتقع قرطاجنة فى وسطها[(٢)] .

وصادر جزريك معظم أملاك عامة الأفريقيين الرومان ، ووزع هذه الأملاك إقطاعات على قومه من الوندال ، ولـكنه تلطف مع هؤلاء الأفريقيين ، وسمح لهم باسترداد أراضيهم نظير دفع أثمانها ، أى يشترونها مرة ثانية ، إلاأن الجزء الأكبر من أراضيهم قسم بين الوندال ولاسيما الأراضى الخصبةأما الأقل جودة والمتطرفة فقد تركها لهم ، ووزع مما صادر على طبقة المحاربين من قومه ، اقطاعات وراثية ، بشرط أداء الخدمة الحربية ، مع إعفائهم من جميع الضرائب[(٣)] .

وعرفت التوزيعـات الإقطاعية ، أو الأراضى التى وزعها إقطاعات باسم : إقطاعات الوندال Sortes Vandalorum[(٤)] . والمعنى الحرفى لهذا المصطلح : الحصص أو التقسيمات الوندالية ، وكلمة سهم أو حصة أو نصيب Sors ، عرفت عند القوط الغربيين وعند الفرنجة البريين على الراين ، وكذلك عند البرجنديين على شواطىء بحيرة جنيف[(٥)] .

---

(١) Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 257-8.
(٢) Gibbon, P. 339 ; Hist. History, P. 579.
(٣) Hodgkin, PP. 257-8.
(٤) Oman, P. 8.
(٥) Deanesly, P. 78 ; Hodgkin, PP. 256, 259.

ومن هذا التوزيع تبدو بذور النظـام الإقطاعى الذى تمخض عنه تدهور المجتمع الفرنجى إبان حكم الـكارولنجيين ، مع العلم بأن له أصولا كذلك ترجع إلى الميروفنجيين أسلاف الـكارولنجيين[١] .

وليس من المعقول أن يترك الوندال أغلبية سكان دولتهم الجديدة فى أفريقية أحراراً ، فإن الضياع الواسعة التى حازها الملك وأولاده ورجال جيشه ، كانت فى حاجة كبيرة إلى جيش كبير من العبيد لزراعتها واستغلالها ، ولذلك انحدر جميع رعايا الوندال من الأفريقيين إلى طبقة العبيد ، وبصفة خاصة ، أولئك الأثرياء من الملاك الذين صودرت أملاكهم ، مما يدل على صلف البرابرة وعتوهم ، ولـكن بمرور الزمن ، أثبت أصحاب المدينة القديمة والثقافة العالية وجودهم وأهميتهم ، إذ لم يلبث أولئك الأرقاء الأرستقراطيون من المستوطنين الرومان ، أن صاروا القوة المحركة لزملائهم من الأرقاء الخاضعين للوندال ، حتى قيل ، إنه إذا طال أمد الحـكومة الوندالية ، على النحو الذى سارت إليه فى طريق الانهيار ، لن يكون هـذا إلا لحساب هذه الطبقة المستنيرة ، التى سوف تسيطر على مجرى الحوادث وعلى مصير الوندال أنفسهم .

أما طبقة الفقراء ، فهم وإن تركوا أحراراً فيما أبقى لهم الوندال من أملاك ، إلا أنهم أثقلوا بأنواع الضرائب المختلفة ، حتى حاول الـكثير منهم الفرار ، ومن قبض عليه أعدم[٢] . وهكذا قاسى جميع السكان من رعايا الوندال . ويمكن أن نتبين طبقتين فقط فى مجتمع الدولة الوندالية فى شمالى أفريقية هما : الطبقة العليا ، وتشمل الوندال وما اندمج فيهم من العناصر البربرية الأخرى مثل الآلان . وهذه الطبقة معفاة من الضرائب . والطبقـة الثانية هى الطبقة الدنيا ، وتشمل جميع من

---

(١) Ganshoff, F.L., Feudalism, PP. 100-101 ; Seigngbos, Ch., L'Europe Féodale (Hist. Générale), T. II, P. 1.

(٢) سعيـد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٧١ — ٧٢ و Oman, PP. 7-8,

عدا الوندال من الرعايا ، وعلى هذه الطبقة كل الغرم . ومثل هذا التقسيم الجائر وجد فى فرنسا فى العصور الوسطى ، ولم يقض عليه إلا بقيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر(١) .

ومن حيث الجيش الوندالى ونظامه ، فالمعروف أن القوة الحربية عند الوندال كانت تتكون من الوندال أنفسهم ومن حلفائهم الذين ارتبطوا بهم أو اندمجوا فيهم مثل : الآلان الإيرانيين والهيروليين(٢) . الجرمان و بعض القوط وبعض السويف . اندمجت هذه العناصر بالوندال ، حتى لم يعد هناك تمييز بينها وبين الوندال . وبجانب هؤلاء البرابرة كان هناك فرقة من المغاربة دخلت فى خدمة الوندال ، ولها رؤساؤها الوطنيون من المغاربة أنفسهم ، وكثيراً ما كان جزريك يرسل المغاربة سنوياً لغزو إيطاليا أو صقلية(٣) .

وامتلاك الوندال قوة بحرية ضخمة ، أصبحت فى وقت من الأوقات أخطر قوة بحرية فى البحر المتوسط ، واكتسب بحارتهم خبرة بحرية ساعدتهم على بث الرعب والفزع عند سكان شواطىء هذا البحر ، ولو أن حروب الوندال البحرية كانت أقرب إلى القرصنة منها إلى الحرب المنظمة .

و بذل جزريك جهداً كبيراً فى الأخذ بأساليب الجيش الرومانى من حيث التنظيم ، فنظم جيشه على الأساس العشرى ، كما يقول المؤرخ بروكبيوس ، وهو نظام قديم عرف فى الشرق والغرب على السواء . واقتضى هذا التنظيم أن يكون على رأس كل فرقة مكونة من ألف محارب ضابط بلقب دوق Dux أو مقدم ألف Chiliarck أو Millenarii(٣) .

---

(١) Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 259 ; Schmidt, P. 316.

(٢) الهيروليون أعظم القبائل الجرمانية وحشية ، وأقام بعضهم فى أول الأمر عند شواطىء بحر أزوف شمالى البحر الأسود (Lot, P. 52) .

(٣) Deanesly, P. 80 ; Hodgkin, P. 256 ; Schmidt, P. 320

أما سياسة الوندال الدينية ، فكانت متعصبة لمذهبهم الأريوسى ، ويعتبر الوندال فريدين بين البرابرة من حيث شدة التعصب[١] ؛ جاءوا إلى أفريقية وهم على المذهب الأريوسى منذ قرن مضى ، وكانت أفريقية فى تلك الفترة بيئة تتنازعها الأهواء الدينية مما سهل عليهم فتحها[٢] . فبدأت علاقتهم بالرعايا الكاثوليك سيئة منذ أول ، إذ لم يلبث جزريك ملك الوندال ، أن صادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ونقلها إلى الكنائس الأريوسية[٣] . وكتب المؤرخ المعاصر فكتور فيتنسس V. Vitensis رسالة عن الاضطهادات الوندالية "De Persecutione Vandalorum" وقال فيها : إن الوندال دمروا الكنائس والكتدرائيات والمقابر والأديرة ، وأحرقوا جميع بيوت العبادة ، وقتلوا الأساقفة ورجال الدين ، وأذاقوا من لم يقتلوه ألواناً مختلفة من العذاب ، كأن يفتحوا أفواههم ويتركونها مفتوحة بالأوتاد والخوابير، وقد يملأونها بالقاذورات، ووضعوا الصخور على ظهورهم ، وأهانوا النساء وكبار القوم وخطفوا الأطفال من أمهاتهم ، وهكذا . غير أنه مما لاشك فيه إن هذا المؤرخ كان مبالغاً فيما كتب إذ كان يكتب تحت تأثير قوميته وتعصبه لمذهبه ، رغم أنه معاصر ، حقيقة ارتكب الوندال الكثير من المنكرات ، شأن البرابرة المتسلطين واسترقوا بعض رجال الدين ونفوا الكثير منهم ، لكن من المبالغة أن نقول : إنهم قتلوا أسراهم أمام المدن المسورة ، فهناك خطر انتشار الأوبئة ، وهم يدركون تماماً أنهم أول ضحايا الأوبئة ؛ ويحتمل أن لكلمة الوندال والوندالية أو الوندلة 'Vandalism' علاقة بالاضطهاد الدينى أكثر من دلالتها على الكراهة الجنسية لأولئك القراصنة ، وما اقترن باسمهم من تخريب وتدمير[٤] .

---

(١) Lot, P. 89 ; Schmidt, P. 321

(٢) Gautier, PP. 199-200 ; Hodgkin, P. 265.

(٣) Oman, P. 9.

(٤) Deanesly' P. 79 ; Hodgkin, PP. 296-71.

حاول جزريك أن يحول بعض الكاثوليك البارزين إلى المذهب الأريوسى ومن هؤلاء : الضابط سباستيان ، صهر بونيفاس ، الذى هام على وجهه فى الأرض فراراً من اضطهاد ايتيوس ، فاتجه إلى القسطنطينية أولاً ، ثم إلى بلاط القوط الغربيين ، واستولى على برشلونة من الأمبراطورية الغربية ، لصالح ثيودريك ملك القوط الغربيين ، ولما ساءت علاقته مع القوط ، توجه إلى جزريك فى أفريقية حيث رحب به ، بعد أن اطمأن إليه ، وعينه فى منصب رفيع ، ولما كان سباستيان كاثوليكيا ، لم يطمئن جزريك إلى ولائه ، فدعاه يوماً إلى حضرته ، وعرض عليه اعتناق المذهب الأريوسى ، فأبى سباستيان فى أدب وشجاعة ومنطق ، غضب جزريك ، وأمر باعدامه بعد ذلك(١) .

كذلك أعدم جزريك أربعة آخرين من الكاثوليك ، وهم من أصل أسبانى ، أخلصوا لملك الوندال ، حتى صاروا من أقرب مستشاريه ، وهم : أركاديوس وبروبس Probus وباسكاسيوس Paschasius ويوتكيوس Eutychius ، وذلك على أثر رفضهم اعتناق المذهب الأريوسى ، وأظهر هؤلاء الضحايا شجاعة نادرة وصلابة محمودة فى الحفاظ على عقائدهم ، ولم تغرهم الوعود بالثروة والجاه أما العاديون من الكاثوليك الذين يخدمون فى حكومة الوندال ، فلم يتعرضوا للاضطهاد العنيف الذى حل بكبار الكاثوليك ، مهما كانت خدماتهم للوندال .

لم يكن جزريك وخلفاؤه ، من بعده ، يعترفون إطلاقاً بحق الفرد فى اختيار العقيدة التى يؤمن بصحتها ، ويحتمل أن الوندال تعصبوا لمذهبهم خلال الجيل الأول الذى تلا الفتح مباشرة .

وبعد وفاة جزريك فى ٢٥ يناير ٤٧٧م ، خلفه ابنه هنريك ، زوج الأميرة

---

(١) Hodgkin, PP. 275-6.

الرومانية أيودكسيا . ولما شعر هنريك بخطورة النزاع بينه وبين بيزنطة حول مصير أيودكسيا . فكر فى إعادة هيئة الأكليروس الكاثوليكى فى قرطاجنة عام ٤٨١م لكنه لم يلبث أن أدرك أنه لم يعد هناك ثمة مايخشاه من جانب روما الشرقية(١)، ولذلك تابع سياسية سلفه فى اضطهاد الكاثوليك ، ولم يعبأ بتأثير زوجته فيه ، انتقم ممن كان يخشى خطرهم ، سواء أكانوا داخل قصره أو خارجه من أتباعه وخدمه وحشمه من الكاثوليك . وعلق المؤرخ بروكبيوس على سياسة هنريك الدينية ، بأنه لم يكن هناك ملك اضطهد المسيحية بمثل القسوة التى عالجها هنريك إذ كان من بين وسائل الاضطهاد عنده الإحراق بالنار . وبمقتضى القرار الذى أصدره هنريك فى ٢٤١ يناير من عام ٤٨٤م ، أمر بتطبيق جميع القرارات الانتقامية أو الاضطهادية التى كان أباطرة الرومان قد أصدروها ضد أصحاب المذاهب المخالفة ، إلا إذا تحولوا للعقيدة الرسمية الوندالية (الأريوسة) فطرد الكثير من الأساقفة ، الكاثوليك إلى جزيرة سردينيا ، واستخدم الأموال التى جباها من مصادرة أملاك الكنائس الكاثوليكية فى بناء كنائس أريوسية جديدة ، وفصل الموظفين الكاثوليك من مناصبهم ، وفرض غرامات مالية على جميع الكاثوليك ، كل بحسب ثروته ومكانته ، وكلف الأريوسيين بتنفيذ قرارته التعسفية . ولم تجد احتجاجات الأمبراطور البيزنطى واحتجاجات البابا(٢).

خلف هنريك حاكان أكثر اعتدالا منه ، هما الأخوان جونثاموند (٤٨٤ — ٤٩٦ م) ، ثراساموند Thrasamund (٤٩٦ — ٥٢٣ م) . لقد اضطهد جونتاموند الكاثوليك ، ولكن على نحو أقل قسوة وعنفاً من هنريك ، ومن بين من لقوا الاضطهاد على يديه أعظم الشعراء المعاصرين يومئذ دراكونتيوس Dracontius ، إذ سجن هذا الشاعر لأنه تغنى

---

(١) Deanesly, P. 80 ; Schmidt, P. 311.

(٢) Gautier, PP. 201-203 ; Schmidt, P. 312

بمحامد الإمبراطور الشرق زينو Zeno وإن لم يفصح عن إسمه[١] . غير أن جونتاموند لم يلبث أن أعاد فتح الكنائس الكاثوليكية فى عام ٤٨٧ ، رغم أن بعض الأساقفة الكاثوليك ظل منفياً فى جزيرة سردينية[٢]. وازدادت سياسة اللين والاعتدال زمن تراساموند ، الذى يعتبر الملك الوحيد بين الملوك الوندال ، الذى ظفر بتمجيد معاصريه من الإغريق واللاتين ، فهو فضلا عن ثقافته الممتازة وبروزه فى الخطابة والخلق الحسن ، كان حليف ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين ، ومتزوجاً من أختـه ، أمالافريدا Amalafrida[٣] وكان المعروف عن ثيودريك فى ذلك الوقت ، إنه متسامح مع الكاثوليك ، فكذلك كان ملك الوندال حليفه وزوج أخته[٤] .

أما الملك هلدريك بن هنريك ، الذى حكم فى الفترة ما بين ٥٢٣ و ٥٣١م ، فأمه أبودكسيا البيزنطية ، وكان قد مكث مدة طويلة فى القسطنطية ، بلغت نحو ٤٠ سنة ، تشبع خلالها بالمدنية الرومانية والثقافة الرومانية ، ولذلك برهن على أنه ملك رومانى أكثر منه وندالى . عطف على الكاثوليك ، حتى قيل عنه فاق عطفه على كاثوليكية أمه عطفه على أريوسية أبيه : من أجل ذلك بدا هلديريك غريباً وسط قومه ، ولما كان معروفاً بالجبن فضلا عن تقدمه فى السن ، خشى تراساموند قبل وفاته أن ينقض هلدريك سياسة أسلافه المتعصبة ، وإن عرف تراساموند نفسه بالتسامح ، إلا أنه أوصى هلدريك ألا يعيد الكنائس الكاثوليكية إلى أصحابها . لم يستمع هلدريك لهذه الوصية ، بل أمر بإعادة الكنائس الكاثوليكية بأساقفتها إلى ما كانت عليه ، أكثر من ذلك أمر بسجن أمالافريدا

---

(١) Bury, P. 125.

(٢) Deanesly, P. 81.

(٣) زفت أما لافريدا إلى ملك الوندال فى موكب فخم ، وجاءت إلى أفريقية وفى صحبتها بعثة شرف من ألف محارب من نبلاء القوط .

(٤) Deanesly, P. 81 ; Bury, P. 125.

أخت ملك القوط الشرقيين ، وهى الأميرة الأريوسية العظيمة، ثم أمر بإعدامها .

وفى عام ٥٣١ م عزل هلدريك وسجن ، وخلفه جليمر Gelimer الذى قضى عليه بلزاريوس(١) .

— ٥ —

بعد مقتل الأمبراطور ما كسيموس فى عام ٤٥٥ م ، ونهب روما على يد جزريك فى ذلك العام ، كان المتحكم الفعلى فى الأمبراطورية الغربية المتدهورة ، القائد أفيتوس Avitus ، وهو الذى تمكن من الوصول إلى منصب الأمبراطور الشاغر يومئذ ، لكنه لم يلبث أن طرد على يد القائد ريكمر Ricemer ، الذى أشتهر فى ذلك الوقت على أثر تحطيمه لأسطول وندالى يتكون من ٦٠ سفينة ، هاجم جزيرة كورسيكا فى عام ٤٥٦م(٢) .

وتم اختيار مايوريانوس Majorianus فى عام ٤٥٧ م ، من أعظم الأباطرة المتأخرين الذين حاولوا إنقاذ الأمبراطورية الغربية من الأخطار المحدقة بها ، انعقدت الآمال عليه ، لوقاية الأمبراطورية من أخطر أعدائها الخارجين فى ذلك الوقت ، وهو جزريك ، إذا كان ملك الوندال ، لقوته ، وصفاته ، وموقع دولته ، أخطر عدو يهدد إيطاليا .

لم يكن الوندال قد كفوا عن أعمال الغزو والنهب والقرصنة ، فقد جاء أسطول وندالى مغربى فى مطلع حكم الأمبراطور مايوريانوس، واقتحم رجاله جنوبى إيطاليا وأخذوا ينهبون المنطقة حول نهر جارليانو Garighliano فأسرعت الجيوش الأمبراطورية وفاجأت الوندال فى منطقة كامبانيا Compania. وأعملت فيهم السيف ،

---

(١) Lot, Les Invasions, P. 142 ; Deanesly, P. 82 ; Schmidt, P. 314,320.

(٢) Hist. History, P. 605.

حتى قتل الكثير منهم ، ومن بين القتلى القائد الوندالى نفسه ، زوج أخت جزريك لم يكتف الأمبراطور مايوريانوس بهذا النصر ، بل صمم على غزو الوندال فى أفريقية ، والقضاء عليهم نهائياً . ويدل هذا المشروع الخطير على جرأة وشجاعة الإمبراطور مايوريانوس ، ولو قدر لهذا الأمبراطور أن ينجح فى بث الروح العسكرية فى الشبيبة الإيطالية ، إذاً لا ستطاع أن ينازل جزريك ، على رأس جيش من الطراز الرومانى القديم ، غير أنه لسوء الحظ ، الذى لازم الأمبراطورية الغربية فى أواخر أيامها ، أنه وقع فى أسوأ ما وقع فيه أسلافه من خطأ ، عندما استعان بالبرابرة ، وأحلهم محل الرومان ؛ ومع ذلك فله فى هذا واسع العذر ، بعد أن وضح له ضعف الروح الحربية عند الرومان ، وأن الأخطار المحدقة به لا تحتمل التأخير(١) .

استهوت سياسته ونشاطه وشهرته ، الشعوب البربرية الضاربة حول نهر الدانوب ، من البورستينيين Borysthenes والتانيين Tanais والجبيديين Gepidae والقوط الشرقيين والروجيين Rugii والبرجنديين والسويف والآلان ، فانثالت حشود هؤلاء جميعاً على إيطاليا ، وقادهم الإمبراطور بنفسه ، وكانوا فى الواقع مفرقين ، تمزق صفوفهم الشحناء والانقسامات ، وذلك كله يرجع إلى أنهم من عناصر مختلفة وأهواء متباينة ولهم مطامع متنوعة ؛ عبرت هذه القوات جبال الألب فى البرد القارس ، وكان الأمبراطور ، بين حين وآخر ؛ يسبر غور الثلج برمحه الطويل ، ويشجع السكيثيين Scythians الذين أظهروا ألمهم من قسوة البرد ، وذلك بتجديد وعوده إليهم وإلى غيرهم ، وأنهم جميعاً سوف يعوضون عن ذلك العناء ، بدفء شمس أفريقية .

امتلأت معسكرات مايوريانوس بالبرابرة الحلفاء ، ويظاهره الشعب الرومانى بحماسه وولائه نحو الإمبراطور ، الذى انعقدت عليه الآمال ، أدرك الأمبراطور

---

(١) Schmidt, op. cit. P. 309.

بثاقب نظره ، استحالة فتح أفريقية والسيطرة عليها ، ما لم يكن أسطوله البحرى قوياً كافياً ، وتذكر أنه خلال الحرب البونية الأولى ، أن جمهورية روما فطنت لأهمية القوة البحرية ، وأنها استطاعت بفضل حماس أبنائها أن تعد أسطولا قوياً فى خلال ستين يوماً ، بعد أول ضربة ضربها أبناؤها لقضع الأخشاب من الغابات ، وأن تنزل فى البحر ١٦٠ سفينة .

ورغم اختلاف الأحوال ، زمن الجمهورية الرومانية ، وخلال النصف الأخير من القرن الخامس الميلادى ، فإنه نجح فى حشر العمال الرومان فى غابات الابنين لقطع الأخشـاب ، وفى إصلاح دور الصـناعة فى رافنا وميسنوم Misenum ؛ كذلك عاونته بلاد الغال ، فى مشروعه الضخم ، ولم يلبث أن تجمع للامبراطور ماريوريانوس أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة ، امتلأت به ميناء قرطاجنة الجديدة فى أسبانيا(١) .

ويدل هذا النشاط المنقطع النظير ، أن الأمبراطور مايوريانوس ، كان من خير ماتمخضت عنه حوادث العهد الأخير من الأمبراطورية الغربيـة ؛ كان مايوريانوس يتحرق شوقاً للنصر ، ويعد عدته له . ويذكر المؤرخ بروكبيوس أن الأمبراطور أراد أن يقف بنفسه على قوة الوندال ، قبـل المغامرة بمشروعه الـكبير ، فتنكر بصبغ شعره ، وزار قرطاجنة عاصمة الوندال ، بوصفه سفيراً للأمبراطور ، فلم يعبأ به جزريك وبسفارته وطرده ، ولما علم بعد ذلك بحقيقة أمره ، حزن أشد الحزن على إفلاته من بين يديه ، ومثل هـذه القصة قد تـكون أسطورة غير تاريخيـة ، إلا أن مثل هـذه الأساطير لا تنسج إلا فى حياة الأبطال(٢) .

---

(١) Hist. History, P. 608 ; Hodgkin, P. 426.

(٢) Hodgkin, PP. 428-29.

لم تخف عبقرية مايوريانوس عن جزريك ، كما لم يجهل ملك الوندال نوايا الأمبراطور الرومانى نحو الوندال ، وما أعده من استعدادات وخطط . ولذا صمم جزريك على اصطناع الحيلة واستخدام الخديعة ، ولا سيما وأن ملك الوندال كان غير مطمئن إلى شجاعة رعاياه الذين أضعفهم ما آلوا إليه من ترف فى الجو الدافىء الأفريقى ، كما أنه كان يشك فى ولاء المغلوبين الذين لم يعتبروه سوى طاغيـة أريوس ، فضلاً عما أصاب بلادهم من تخريب ومصادرة ومظالم ، كان جزريك على يقين من أن الرومان يستطيعون أن ينزلوا فى أية بقعة على الساحل ؛ ولذلك رأى أن يصطنع الحيلة ، ويتقـدم طالباً الدخول فى مفاوضات الصلح ، وبعث إليه سفارة تطلب منه المهـادنة والصلح : فرفض الأمبراطور مايوريانوس(١) . متمسكاً بالمبدأ القديم القائل بأنه لا أمان لروما طالما كانت قرطاجنة فى يد الأعداء.

استطاع جزريك أن يفلت مما أعده له خصمه العنيـد ، بعد أن فشلت خديعته ، فاستعان ببعض الخونة من رعايا الأمبراطور ، أولئـك الذين حز فى نفوسهم نجاحه وشهرته ، وفاجأ جزريك جزءاً من الأسطول الرومانى فى خليج قرطاجنة الجديدة بأسبانيا قبل أن يتحرك ، وأغرق أكثره أو أحرقه ، وذلك فى مايو ٤٦٠ ؛ وبذلك دمرت استعدادات ثلاث سنوات فى يوم واحد(٢) .

ولقد دل سلوك كل من الخصمين القويين ، بعد هذه الكارثة ، على أنهما قادران على المثابرة كل فى مشروعه ، فلم ييأس الأمبراطور ، كما لم يباه الوندال بهذا النصر السريع الغادر . جدد الوندال مفاوضاتهم من أجل المدنة والصلح ، وفى هذه المرة ، وافق الأمبراطور ، حتى تتاح له الفرصة لإصلاح أسطوله وإعادة بناء قوته لمعاودة الـكرة ؛ ومن ثم عاد الأمبراطور مايوريانوس إلى إيطاليا ليتابع جهوده من أجل بلاده . كان الأمبراطور يدرك تماماً سلامة موقفـه وتصرفاته ،

(١) Gautier, P. 248.

(٢) Gautier, P. 248 ; Hist. History, P. 609 ; Oman, P. 9.

ونزاهة أهدافه ، ولكن الشيء الذى لم يخطر له على بال ، هو تلك المؤامرات التى كانت تحاك حول عرشه(١) .

حدث أن زعزعت كارثة قرطاجنة ، ذلك المجد الذى تمتع به الأمبراطور مايوريانوس ، بسبب انتصاراته وتوفيقاته ، والواقع أن الحكومة الأمبراطورية فى روما ، كانت منهارة ، ففيها الكثير من رجال الحرب والسياسة ، الذين لا يفيدون إلا فى جو المؤامرات وخلال أحداث الفتن ، فلم يتمخض عمله الدائب فى تطهير أداة الحكم ، إلا عن قيام مؤامرة ضده ، نسج خيوطها ريكمر ، أثار البطريق ريكمر أحقاد البرابرة ضد الأمبراطور بحجة أنه لم يعد صالحاً لحكم الأمبراطورية . وسرعان ما ثار البرابرة ضد الأمبراطور ، وأجبروه على التنازل عن العرش ، و بعد ذلك بخمسة أيام أشيع موته ، بسبب مرض الدوسنتاريا ، والحقيقة أن ضباط القائد ريكمر ، قبضوا عليه ونزعوا عنه شارة الملك وقطعوا رأسه فى ٧ أغسطس ٤٦١ م(٢) . و بمقتل مايوريانوس ، انقطع آخر خيط فى أمل انقاذ الأمبراطورية ، أو على الأقل فى تأجيل سقوطها إلى حين .

أضحى ريكمر الحاكم بأمره فى الغرب ، واختار لنفسه أن يكون صانعاً للأباطرة ، دون أن يكون هو امبراطوراً ؛ ولم تكن الحال فى الشرق خيراً منها فى الغرب ، إذ كان المتحكم فيها يومئذ القائد أسبار Aspar الآلانى الأريوسى ؛ اختار أسبار لعرش الأمبراطورية فى الشرق اشباداره ليو الأول (٤٥٧—٤٧٤م) ليكون طوع أمره ، لكنه جاء على غير ما كان يتوقعه أسبار ، إذ عمل على تدعيم مركزه فى الداخل والضرب على أيدى أسبار لكى يتفرغ لقهر الوندال ، بعد أن ظهر عجز الأمبراطورية الغربية بعد مايوريانوس ؛ ولم ير أسبار من وسيلة

(١) Deanesly, P. 77; Villari, P. 129.

(٢) Hist. History, P. 609.

للانتقام من الأمبراطور الذى عينه ، سوى الاتصال سراً بجزريك الوندالى ، لاتفاقهما معاً فى المذهب الأريوسى فضلاً عن تشابه المصالح(١).

وبعد أن نجح ليو فى تحرير نفسه من استبداد أسبار ، بتكوين قوة حربية ضاربة من الأيسوريين الأسيويين ، لموازنة قوة أسبار ، استجاب لآلام الايطاليين وتوسلاتهم لإنقاذهم من خطر الوندال ، وأعلن على الفور تحالفه مع الأمبراطورية الغربية ضد الوندال ، لكنه لم يعترف بالأمبراطور ساويرس (٤٦١ — ٤٦٥م) الذى عينه ريكمر خلفاً لمايوريانوسى ، وظاهره فى ذلك حاكما الغال ودالماشيا .

ولما مات الامبراطور ساويرس ، بعد أربع سنوات صاخبة ، ظل ريكمر صاحب السلطة الفعلية نحو أكثر من سنة . لكنه اقتنع خلال هذه الفترة ، باستحالة قهر الوندال دون الاستعانة بقوة بيزنطية بحرية ، لذلك اتفق مع السناتو الرومانى للتقدم إلى الامبراطور ليو ليختار أمبراطوراً للغرب ، فاختار لهم انثميوس Anthemius (٤٦٥ — ٤٧٢م)(٢) .

اتفق الامبراطوران على إنقاذ الغرب من خطر الوندال ، وعاد الأمل قوياً ، بفضل هذا الاتحاد ، فى استعادة أفريقية والنفوذ الرومانى فى البحر المتوسط(٣) . أعد ليو أسطولاً ضخماً فى عام ٤٦٨ م ، أنفق على إعداده أموالاً ضخمة وجهوداً مضنية ، وكان هذا مما شجع ماركلينوس Marcellinus حاكم دالماشيا على إعلان ولائه للامبراطور انثميوس ، فقام على رأس أسطول من مثله ، وأنزل هزيمة بالوندال واستخلص منهم جزيرة سردينيا وصقلية مؤقتاً(٤) ، وفى نفس

(١) Hist. History, P. 611.

(٢) الأمبراطور أنثميوس هو ابن بروكوبيوس ، من أصل شريف ، ويمتاز بالخلق والفضائل ، وكان من أعظم حكام الشرق ، تزوج من يوفيميا Euphemia إبنة الإمبراطور مارقيان ، فكانت هذه المصاهرة من أسباب ترقيته السريعة إلى كونت فقائد عام فبطريق ، يضاف إلى ذلك مجده الحربى الذى حققه بانتصاراته السابقة على الهون عند الدانوب .

(٣) Gautier, PP. 252-53.

(٤) Hodgkin, P. 447.

الوقت ، نزل هرقل Heraclius القائد البيزنطى على شاطىء أفريقية فى طرابلس واستعاد بعض المـدن من أيدى الوندال ، ثم تقدم نحو قرطاجنة ليلتقى بالحملة الأساسية التى جاءت إلى قرطاجنة عاصمة الوندال(١) .

نزلت القوات البحرية الضخمـة عند رأس بون Bon ، على بعـد نحو ٤٠ ميلاً من قرطاجنة ، وكان لواء القيادة العليا معقوداً للقائد البيزنطى بازيلسكوس Basiliscus إبن زوجة الأمبراطور ليو . جاء نزول القوات البيزنطية الرومانية على الساحل الأفريقى مفاجأة مزعزعة للثقة فى قلب جزريك ، حتى أسرع يطلب الدخول فى مفاوضات الصلح ، بأى شروط يمليها الرومان ، وطلب هدنة لمدة خمسة أيام ، لإتمام شروط الصلح ، والواقع أن ملك الوندال لم يكن يرمى إلا إلى كسب بعض الوقت لإعداد نفسـه ، ولإيجاد انقسام بين قادة الحملة الرومانية ، حول ما عرضه ملك الوندال ، وفى كلا الحالين يستفيد جزريك. استجاب بازيلسكوس لخديعة جزريك ، إما لأنه قصير النظر سيء التدبير ، وأما لأن أوامر سرية وصلته من أسيار الحقود على الإمبراطور ليو ، وكان بازيلسكوس يطمع فى العرش البيزنطى ، وإما لأن الوندال رشوه بكمية كبيرة من الذهب . وأياً كانت الأسباب ، فإن حيلة جزريك جازت على القائد الرومانى ، وتمـكن جزريك خلال الخمسة أيام التى جرت فيها المفاوضة ، أن يستعد استعداداً عاجلاً ، وفى جنح الليل حشد حراقاته بالقرب من أسطول الرومان ، وفى مكان تسهل الحركة فيه ، أشعل فيها النيران وأرسلها إلى سفن الرومان فاحتـكت بها ، وأشعلت النيران فيها ، وحينئذ هجم الوندال هجمة صادقة ، استولوا فيها على سفن المؤن الرومانية ، وأغرقوا أكثر الأسطول ، فـكانت خسارة الرومان فادحة ، وقعت هـذه الـكارثة فى ربيع عام ٤٦٨ م(٢) .

---

(١) Gautier, P. 256.

(٢) Hodgkin, PP. 446-50 ; Hist. History P. 613 ; Gautier, PP. 252-3.

لم يستطع القائد بازلسكوس أن يعمل شيئاً ، سوى النجاة بنفسه والعودة سريعاً إلى القسطنطينية ، حيث لجأ إلى كنيسة أياصوفيا ، إلى أن ظفر بالعفو ، ونجا من حكم الإعدام . وفشل إذن مشروع القضاء على الوندال .

وخلال الفترة من ٤٦٨ — ٤٧٦ م كانت الأمبراطوية الغربية قد بلغت ذروة الاضطرابات والفوضى ، فوليها عدد من الأباطرة الأشباح ، كانوا صنيعة صناع الأباطرة أمثال ريكمر وأورستيز ، ومن هؤلاء الأباطرة ، أوليبريوس Olybrius حمو ريكمر ، ولاه الأخير بعد أن قتل أنثميوس فى عام ٤٧٢ م ، ولما كان أوليبريوس متزوجاً من بلاسيديا التى أعادها جزريك إلى القسطنطينية فقد طمع جزريك فى صداقة الرومان عندما ولى أوليبريوس العرش ، ومن أجل ذلك أوقف جزريك غزواته على بلاد الإغريق ، وأعلن أن « اللعنة حلت على إيطاليا فقط »؛ فتكررت صوائنه على إيطاليا وصقلية ، وكانت أهدافه هى القرى والمدن غير المسورة ، خشية من وجود الحاميات القوية فى المدن الكبرى[١] . ولما قتل أوليبريوس فى ذلك العام ازدادت أحوال الأمبراطورية اضطراباً إلى أن سقطت نهائياً فى عام ٤٧٦م على يد أدواكر وأصبح زينو أمبراطور الشرق هو الأمبراطور الوحيد على شطرى الأمبراطورية[٢] .

وفى أوائل عام ٤٧٧م ، أى بعد نصف سنة فقط من سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، وبعد طرد الأمبراطور أغسطلوس آخر الأباطرة فى الغرب ، مات جزريك ملك الوندال ، بعد أن ظل نحو نصف قرن ، الشبح المخيف للرومان ، ولكنه مات بعد أن ماتت الأمبراطورية الغربية نفسها ، وسرعان ما تدهورت مملكة الوندال من بعده ، ولم يكد يمضى أكثر من نصف قرن

---

(١) Hodgkin, PP. 516-36 ; Villari, PP. 148-9.

(٢) أنظر : نهاية الأمبراطورية فى الغرب للمؤلف (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة — العدد التذكارى ١٩٦٢) Souttar, P. 335.

بقليل ، بعد وفاة جزريك ، حتى أضحت دولة الوندال فريسة سهلة الاقتناص أمام الأمبراطور الشرقى يوستانيوس .

ماتت عظمة الوندال وقوتهم بموت جزريك ، رغم ما خلفه من أسطول ضخم قوى ، وخزانة مليئة بالأموال ، فضلاً عن القصر الرائع التى تزينه التحف المنهوبة من روما . لم يستطع خليفته من بعده أن يفيد مما خلف سلفه . كما لم تستطع أيودكسيا البيزنطية زوجة هنريك أن تحمله على التخفيف من حدة تعصبه ضد الكاثوليك ،وقد هربت زوجته هذه من قرطاجنة بعد أن عاشت معه ١٦ سنة وأنجبت له ولدين ، هربت سراً إلى القدس حيث ماتت(١) .

كان على الأمبراطورية الشرقية أن تصفى حسابها مع الوندال ولاسيما وقد أصبحت هذه الأمبراطورية هى المسئولة الوحيدة عن مصائر الرومان ومصالحهم فى الشرق والغرب ، ولم ينقطع الوندال خلال تلك الفترة ، أى منذ وفاة جزريك حتى قيام يوستانيوس فى العرش ٥٢٧ م ، عن مهاجمة شواطىء البلقان وشرق البحر الأبيض ، وكان سلف يوستانيوس وخاله جستين الأول (٥١٨ — ٥٢٧م) قد وجه أنظار الكاثوليك المضطهدين من رعايا ملوك الجرمان الأريوسيين عامة إلى الشرق ، وجاء خليفته بمشروعه العظيم لإعادة الأمبراطورية الرومانية وإحياء السيطرة الرومانية Roman Imperium . فضلاً عن إحياء الروح الرومانية Romanitas (٢) . واستعادة أفريقية الوندالية جزء حيوى فى هذا المشروع الضخم.

كان الوندال يشكلون الخطر الحقيقى على الأسطول البيزنطى فى البحر الأبيض ، وانتهز يوستانيوس فرصة عزل الملك الوندالى هلدريك(٥٢٣ — ٥٣١م)

---

(٢) Oman, PP. 10-11 ; Lot, La Fin, P. 289.

(١) Diehl & Marçais, PP. 54-55 ; Deanesly, P. 82.

وهو الملك الذى تجرى فى عروقه الدماء البيزنطية(١) . وأعد عدته للتدخل ، فأنهى ما هنالك من مشاكل ، بأن عقد صلحاً مع كسرى الأول الفارس ٥٣٢م وأخمد نيقة Nika فى نفس السنة(٢) . ورغم الارهاق الذى لقيه الجنود البيزنطيون فى الحرب الفارسية ، فضلاً عن النفقات ، هناك عوامل شجعت الأمبراطور يوستانيوس على تنفيذ مشروعه ، منها أن التجار الأغريق صاحوا بضرورة الحرب مع الوندال ، كما أن أساقفة الوندال أنفسهم كانوا يؤكدون أن أهل الولايات على تمام الأهبة لمساعدة جيوش الأمبراطورية ، ولعل هذا من أهم العوامل التى شجعت يوستانيوس ، على المضى فى خططه ، يضاف إلى ذلك : تلك الثورة الوطنية التى قامت فى طرابلس ، ضد سيادة الوندال ، وتزعمها بودنتيوس Pudentius ، زمن جليمر ، آخر ملوك الوندال ، وكان زعيم الثورة على اتصال بالأمبراطور الشرقى ، وجاءته فعلاً فرقة حربية صغيرة من قبل الامبراطور ، وارتكب ملك الوندال غلطة كبرى فى أنه لم يعمل على قمع الثورة والقضاء عليها ، ومعنى هذا ، أن جيوش الامبراطور سوف تنزل فى أرض صديقة(٣) .

وقبل هذا الحادث بقليل ، ثار الحاكم الوندالى فى جزيرة سردينيا وأعلن استقلاله عن قرطاجنة ، وكان هذا الحاكم قوطياً دخل فى خدمة الوندال ، اسمه جوداس Godas ، فلما علم بمشروع الامبراطور يوستانيوس ، أعلن خضوعه له ، فأرسل جليمر حملة قوامها خمسة آلاف محارب و ١٢٠ سفينة ، لقمع الثورة وهذا ما حرمه من خدمات هذه الحملة فى صد جيوش الأمبراطور ، كما حرمه من معظم سفن الأسطول الوندالى وأحسن البحارة(٤) . هذا وهناك العداء الذى

---

(١) Diehl & Marçais, PP. 64-67.

(٢) Ibid.

(٣) Bury, II, P. 128.

(٤) Ibid ; Diehl et Marçais, P. 66.

الذى استحكم فى ذلك الوقت بين الوندال والقوط الشرقيين ، نتيجة سجن امالافريدا Amalafrida القوطية زوجة تراساموند ملك الوندال السابق ، فقد سجنها الوندال بعد وفاة زوجها وقتلوها مما أدى إلى قطع علاقة الصداقة بين القوط الشرقيين فى إيطاليا و بين الوندال فى أفريقيـة ، أى بين بلاطى رافنا وقرطاجنة(١) . ولذلك ساعد القوط الشرقيون على اقتلاع الوندال وإبادتهم ، وذلك بوضع موانى صقلية تحت تصرف الجيوش الأمبراطورية(٢) .

تذللت أذن جميع مصاعب يوستانيوس ، ولا سيما مشكلة تأمين طريق المواصلات وخط السير . رسمت الخطة على أساس إنزال جيوش الفتح أو إعادة الفتح الرومانى لأفريقية Reconquesta ، على الشاطىء قرب قرطاجنة(٣) .

أبحرت قوات الأمـبراطور يوستانيوس من القسطنطينية فى ٢٢ يونيو من عام ٥٣٣م ، وعلى رأسها كونت بلزاريوس أقدر قواد الأمـبراطورية ويليه فى القيادة العامة القائد الأرمنى الـكفء حنا Joannes(٤) ، وبارك البطريق هذه الحملة قبيل ابحارها(٥) . بلغت عدة سفن النقل ٥٠٠ سفينة ، وعليها عشرة آلاف من الجنود الرجالة وخمسة آلاف من الفرسان ، هـذا بالإضافة إلى فرقتين من الرماة المعاهدين (Laeti, Foederati) من الهون وعددهم ٦٠٠ محارب ، ومن الهيرولين Heruli وعدد ٤٠٠ مقـاتل(٦) ، صحب كونت بلزاريوس فى حملة . زوجته أنطونيـا ومستشارة المؤرخ بروكبيوس Procopius ، أحد قادة الفكر فى بيزنطية فى القرن السادس الميلادى (٤) ؛ وكذلك رئيس حرس

(١) Villari, P. 197.

(٢) Bury, II, P. 129.

(٣) Deanesly, P. 83.

(٤) Villari, P. 198.

(٥) Bury, II, P. 129.

(٦) Oman, PP. 76-77 ; Bury, P. 127, Lot, Les Invasions, P. 142 ; Schmidt, P. 315.

(٧) بروكبيوس من مؤرخى القرن السادس الميلادى ، صحب الحملات البيزنطية ضد فارس والوندال والقوقاس الشرقيين ، ووضع كتباً عن هذه الحروب مثل : De Bello Vandalorum etc... (Bury, PP. 129, 143)

بلزاريوس الخـاص وهو الخصى سولومون العراقى الأصل ، ومن أقدر الخصيان وأشجعهم ، وهو الذى ولى افريقية بعد القضاء على الوندال(١) .

ركب بلزريوس وزوجته ومستشاره ورئيس حرسـه فى سفينة القيـادة Navis Praetoria ، ولقى الجيش مصاعب جمة خلال رحلته ، من ذلك عواصف فى بحر ايجه ، ونفاد الماء العذب الطازج ، ويذكر بلزاريوس أن سفينة القيادة لم تشك قلة المياه نظراً لمهارة زوجته فى طريقة حفظ الماء ، إذ كانت خزنت المياه فى أوانى زجاجية فى أسفل السفينة وغطتها بالرمال ، ومن ثم بقى الماء طازجاً بارداً(٢) . وعند صقلية ، وقف الأسطول البيزنطى قرب سرقوسة ، حيث أخذ حاجته من التموين(١) ، فضلاً عن الأخبار الخاصة بالعدو ، وهذه جمعها بروكبيوس عنـدما نزل إلى الجزيرة . وعلم أن الوندال مشغولون فى إخماد ثورة سردينيا ؛ استأنف بلزاريوس رحلته ، وساقته الرياح إلى رأس فادوا Caput Vada أوراس كبوديا على بعـــد ١٦٢ ميلاً من قرطاجنة ، ونحو ٦٦ ميلاً جنوبى هادروميتوم Hadrumetum (سوسه)، ويقول بروكبيوس إن المسافة بينها وبين قرطاجنة تستغرق خمسة أيام سيراً على الأقدام(٢) .

وقبيل نزول بلزاريوس وجيشه إلى البر ، عقـد مجلساً حربياً على سفينة القيادة ، وناقش خطط الهجوم على قرطاجنة ، وفى الشهر الثالث منـذ خروجهم من القسطنطينية ، نزلوا على الساحل الأفريقى فى سبتمبر ٥٣٣م ، واتخذت القوات البيزنطية أماكنها فى معسكرات محاطة بالأسوار ، ومن بين الأسوار سور من الأوتاد والخوابير ، تم ذلك فى سرعة فائقة ، وفى يوم واحد . وكان معسكر البيزنطيين بالقرب من بئر فيها مياه كافية لتموينهم وتموين خيولهم بالماء ، مما كان من أكبر

---

(١) Ibid.

(٢) Deanesly, P. 82.

(٣) من المحتمل أن جزريك كان قد عقد معاهدة مع أدواكر قبل وفاته عام ٤٧٧ تنازل بها عن معظم جزيرة صقلية فى نظير أن يدفع له أدواكر جزية سنوية Hodaku, P. 256Oman, P. 10.

(٤) Bnry, II, P. 130.

العوامل التى ساعدت على نجاح الحملة . أمضى بلزاريوس وجيشه ليلة للراحة والاستجمام ، وكان يتولى الحراسة على كل سفينة خمسة عشر من الرماة الأفذاذ .

وفى اليوم التالى تقدم بلزاريوس ، وأوصى رجاله بعدم التعرض لقمح أهل الولايات وثمارهم بأى أذى ، مذكراً إياهم بأن الأفريقيين ليسوا سوى سلالة الرومان الأوائل ، وهم يكرهون الوندال أشد الكراهة ؛ ثم طمأن بلزاريوس الأفريقيين بقوله ، أنه على وشك أن يزيح عنهم هذا الكابوس الطاغى .

أرسل بلزاريوس فرقة من ثلثمائة فارس بقيادة حنا الأرمنى للاستطلاع ، وكذلك فرقة من الهون من ٦٠٠ فارس للسير على جانب طريق الزحف لحماية الجيش من هجوم مفاجىء أو كمين ، واستولوا على أول مدينة وهى سيلكتم Syllectum (Selekta) بدون أى مقاومة أو حرب ، بل أخذوها بالخدعة والحيلة ، إذ كان المشرف على خيول الوندال فيها ، قد سلم الخيول إلى بلزاريوس فكافأه بكمية من الذهب ، وسلمه رسالة الأمبراطور إلى زعماء الوندال ليقرأها عليهم ومضمون هذه الرسالة : « أن غرض الجيش الرومانى ليس حرب الوندال ، أو أنه يريد نقض المعاهدة التى أبرمها جزريك (٤٧٦م) ، ولكن الهدف الوحيد هو إزالة حكم الطاغية (جليمر) الذى استخف بوصية جزريك وسجن ملك الواندال (هلدريك) وقتل أقرباءه وسمل عيون الباقين ، وآثر إبقاءهم لتعذيبهم ، ولذلك انضموا إلينا لإنقاذكم وتحريركم من حكم الطاغية ، وسوف تنعمون بالأمن والحرية ونعاهدكم أمام الله ، بأننا سوف نحقق لكم هذه الوعود »(١) .

ولكن الرجل الوندالى الذى تسلم الرسالة ، لم يستطع أن يقرأ الرسالة على الملأ ، واكتفى بعرضها سراً على أصدقائه الذين يثق فيهم ، ومن ثم لم تكن لها أية نتيجة . وعندما تقدم بلزاريوس ، ساعده الأهالى بالمؤن ، ومر الجيش فى طريقه

---

(١) Bury II, P. 130.

بالمدن : تابوس ، ولبـده وسوسه ، ثم إلى جراس Grasse حيث يوجد قصر بحديقة جميلة لملك الوندال ، ومكان هذا القصر حالياً « سيدى خليفة » . كان جليمر فى ذلك الوقت فى مدينة هرميان Hermiane بولاية بيزاكينا ؛ ولما علم بتقدم الزحف الرومانى ، بعث برسالة سريعة إلى أخيه أماتاس Ammatas فى قرطاجنة ، يأمره بقتل هلدريك ومن معه بالسجن ، والاستعداد بكل قواته لمهاجمة الرومان ، وكان جليمر يريدأن يحاصر الرومان قرب تونس(١) .

وفى ١٣ سبتمبر ٥٣٣م ، التقى بلزاريوس بجيش جليمر الوندالى ، وهزمه على بعد عشرة أميال جنوبى قرطاجنة ، فى موضع اديكم Ad-Decimum ، فهرب جليمر إلى نوميديا غرباً ، ولم يلق الـكونت بلزاريوس صعوبة تذكر فى الظفر بهذا النصر السريع ، حتى أنه تمـكن فى أمسية ذلك اليوم ، أن يتوجه إلى قرطاجنة مع زوجته ، حيث كان الهدوء يسودها ، ولم تـكن هناك أية عقبة تحول دون دخوله فيها ، إذ كان القرطاجانيون قد فتحوا أبواب مدينتهم ، بعد أن شاع هرب ملك الوندال ، وإضاءوا المصابيح ، حتى بدت المدينة فى تلك الليلة كأنها فى عيد(٢) .

أما الوندال المقيمون فى قرطاجنة ، فقد لجأوا إلى الـكنائس يتضرعون فيها فيها إلى الله ، لم يدخل بلزاريوس المدينة فى ذلك الوقت خشية أن يكون بها كمين ، وفى اليوم التالى وصلت سفنه إلى ما ندركيوم Mandracium — ميناء قرطاجنة — وأزال المرشدون القرطاجانيون السلاسل من مدخل الميناء ، وأفسحوا الطريق حتى دخلت السفن .

وفى ١٥ سبتمبر ، دخل بلزاريوس قرطاجنـة ، وأمر رجاله بعدم التعرض

---

(١) Ibid PP. 130-32; Diehl et Marçais, P. 66.

(٢) Oman P. 78; Gautier, P. 309

للسكان بأى أذى ، فحسبهم ما قاسوه زمن الوندال ، ودخل قصر جليمر وجلس على عرشه(١) . ويصف بروكبيوس الحفل الذى أقامه بلزاريوس، ابتهاجاً بالنصر، فى قاعة الحفلات بالقصر الملكى الوندالى ، حيث اعتاد ملوك الوندال أن يقيموا حفلاتهم فيهـا ، مع أمراء قومهم . ويطلق الرومان على قاعة الحفلات عادة فى القصور الأمبراطورية اسم « القاعة الدلفية » ، حيث توضع منضدة ذات ثلاثة أرجل، وعليهايضع السقاة الأمبراطوريون Pincernae الـكؤوس ونظراً لاستعمال هذا التقليد لأول مرة فى مدينـة دلفى اليونانية ، أضحى الرومان يطلقون كلة « الدلفية » على هذه المنضدة ، واستعار البيزنطيون هذا المصطلح وأطلقوه على قاعة العشاء فىالقصورالأمبراطورية ، فسموها : الغرفة الدلفية . كانت هذه القاعة معدة بالأوانى والطعام والشراب ، استعداداً لحفلات جليمر ، فآلت هذه الاستعدادات جميعها إلى بلزاريوس ورجاله ، وقام خدم جليمر بتقـديم الطعام والشراب للمنتصرين(٢) .

ورحب السكان بالفاتح ، وأبحر الأسطول الإمبراطورى إلى بحيرة تونس ؛ وفى تلك الأثناء بعث المغاربة فى نوميـديا بسفرائهم إلى بلزاريوس مظهرين خضوعهم وإذعانهم للفاتح ؛ وكان من عادة زعمـاء المغاربة أن يمنحهم أباطرة الرومان شارات الأمرة على أقوامهم ، وهذه الشارات عبارة عن : عكاز مصفح بالفضة وقلنسوة فضية على شكل تاج ، ومعطف أبيض ، وتيونك Tunias أى رداء رومانى ، وحذاء منخفض . أرسل بلزاريوس بهذه الشارات ، دليلاً على عودة الأمور إلى ما كانت عليه(٣) .

---

(١) Lot, Les Invasions, P. 143 ; Deanesly, PP. 83-4 ; Bury, II, P. 135.

(٢) Deanesly, P. 84.

(٣) Ibid.

(٤) Bur, II, PP. 13°-36y.

وعلى أثر هذا النصر المبين ، استعاد الأساقفة الكاثوليك مراكزهم وكنائسهم، وطهروا الكنائس من آثار الأريوسية ، وعلقوا فيها التحف والهدايا التى نذرها المؤمنون للكنيسة ، والتى كانت أخفيت خلال سيطرة الوندال ، وظلت مخبوءة طوال تلك الفترة ، ومن بينها الطاسات الجميلة المزخرفة ، والمشكاوات وغيرها ، أعيد كل شىء إلى حاله، وهرب رجال الدين الأريوسيون وتفرقوا فى شتى الجهات .

أما جليمر الآبق ، فقد كان لاجئاً فى ذلك الوقت عند بعض القبائل المغربية ، التى ظلت على ولائها له ، وذلك فى مدينة بولارجيا Bulla Regia فى نوميديا ، وهى المعروفة حالياً باسم « حمام دراجى » ؛ خرج جليمر واستأنف كفاحه ، رغم انتصارات بلزاريوس ، فقطع الماء العذب عن قرطاجنة ، وحاصرها ، فهزمه بلزاريوس مرة أخرى فى منتصف ديسمبر من نفس العام (٥٣٣) عند مدينة تريكاماروف Tricamarum — ومكانها الآن غير معروف ، وكانت تقع على بعد نحو ٢٠ ميلاً غربى قرطاجنة . حينئذ عاد جليمر إلى مخبأه مرة ثانية ولكن فى تلال بابوا Pappua, فى مفاوز نوميديا عند أنصاره من المغاربة ، وعاش فى هذا الملجأ فى بؤس وجوع ، وقاسى من شدة البرد ، ولا سيما وكانت فرقة الهيروليين بقيادة زعيمهم الهيرولى فراس Pharas قد أحاطت بهذا الجبل وحاولت دون اتصاله خارج هذه المنطقة ، وأرسل القائد الهيرولى إليه رسالة ودية ينصحه فيها بالتسليم ، إذ لم يعد هناك جدوى فى أية مقاومة ، فسلم[١] .

وفى تلك الأثناء كان بلزاريوس قد تقدم إلى هيبو رجيوس واستولى عليها ، واحتاط على الموجود فيها من كنوز الوندال ؛ ثم أرسل جيشاً من قبله لفتح سردينيا وقورشيقة وجزر البليار ؛ وأخيراً استولى بلزاريوس على مدينة سوتا Ceuta (سبتـه) فى أقصى المغرب ، واستعاد كذلك جزر البليار وقورسقه وسردينيا .

---

(١) Gautier, PP. 309-10; Lot, La Fin, PP. 289-90; Bury, PP. 135-36.

وبتسليم جليمر ملك الوندال فى مطلع عام ٥٣٤م ، تكون دولة الوندال قد زالت نهائياً(١) . واقتنع الأمبراطور يوستانيوس بهذه النتيجة الطيبة ، فإن الوندال ذهبت ريحهم ، ولم يعد هناك أى خوف من ناحيتهم ، واستدعى قائده المظفر واحتفل بالنصر فى القسطنطينية ، حيث سار الملك جليمر الوندالى الأسير ، فى موكب النصر ، واتخذ يوستانيوس لقباً جديداً على أثر هذا النصر وهو « الوندالى والأفريقى أى قاهر الوندال وفاتح أفريقية & Africanus Vandalicus ، وأعيدت الحكومة الرومانية بكامل مظاهرها وتقاليدها فى أفريقية(٢) .

ومن بين المغانم التى استولى عليها بلزاريوس وعاد بها إلى القسطنطينية ، الأوانى الذهبية التى كان القيصر تيتوس Titus Caesar قد استولى عليها يهوذا Judaea من قبل ؛ وعومل جليمر ملك الوندال بالرحمة والتقدير فأعطاه الأمبراطور يوستانيوس ضيعة كبيرة فى منطقة فرجيا بأسيا الصغرى ، حيث ظل يعيش جليمر وأسرته فى هدوء ونعمة(٣) . وقد عثر فى عام ١٨٧٥م بالقرب من مدينة Feltre على وعاء فضى مكتوب عليه : جليمر ملك الوندال والآلان Geilamir Vandalorum et Alanorum Rex ولا بد وأن هذا الوعاء كان من بين كنوزه التى استولى عليها بلزاريوس ، ويقول المؤرخ ممسن Mommsen إنه ربما كان بلزاريوس أهداه إلى ضابط هيرولى ، ويحتمل أن هذا الضابط هو الذى نقله معه إلى إيطاليا(٤) .

وكان من بين الأسرى عدد كبير من الجنود الوندال ، فكون منهم الأمبراطور يوستانيوس خمس فرق « نسبت إلى الأمبراطور نفسه » وندال

(١) Villari, P. 199 ; Bury, II, PP. 137-138 : Gautier, P. 310.

(٢) Oman, P 79 ; Lot, La Fin P. 290; Bury, II, PP. 138-39. Halphen, L., Les Barbares, P. 96 ; Moss, PP. 97-100.

(٣) Bury, II, P. 179.

(٤) Bury, II, P. 139.

يوستانيوس : 'Vandali Justiniani' . ووضعها عندنا بالحدود الفارسية ، كما دخل عدد من الوندال الأسرى فى خدمة بلزاريوس[١] .

لم تكن هناك من مصاعب فى فرض السيادة الرومانية من جديد على أفريقية الرومانية ، سوى ما صدر من مقاومات عنيفة وثورات عارمة ، شنها الوطنيون المغاربة ضد السيادة البيزنطية ، مما حمل بلزاريوس على العودة من صقلية إلى أفريقية لقمع الثورات . وتكررت الثورات ضد سولومون Solomon أول حاكم بيزنطى عقب زوال الوندال ، وكذلك ضد حلفائه من بعده ، فمثلاً كان على سولومون ، أن يطارد أنتالاس Antalas زعيم قبيلة فركس Frexi البربرية وحلفاءها من القبائل الآخرين بزعامة كاتسنا إذ كان هذا الحلف يهدد ولاية بيزاكينا ، كذلك كان الزعيم لابداس Labdas ملك بربر جبل أوراس يهدد نوميديا ويخرب فيها ولذلك عاش سكان نوميديا فى رعب وفزع من البربر المقيمين بجبال أوراس ، أما بربر موريتانيا ويشغلون أغلب مساحتها ، فكان يتزعمهم إثنان فى ذلك الوقت هما : ماسونا Masuna وماستيجاس ثم إن ولاية طرابلس كانت معرضة دائماً لغزوات قبائل لواته البربرية[٢] .

وفشل سولومون فى القضاء على أخطار الثورات الوطنية التى شنها البربر ، ضد كل سيادة أجنبية ، وكان الجيش الرومانى ضعيفاً فى أفريقية ، وفشل حكام الرومان فى تهدئة البربر ولم تجد الحصون التى أقامها الرومان بعد الوندال ، فى الحيلولة دون غزوات البربر ، وإن حاولت دون ثورات السكان فى المدن ، بل لم يحل دون انهيار الحكومة الرومانية فى تلك الفترة سوى تفكك القبائل البربرية الوطنية وعدم الوحدة بها ، بسبب الأحقاد والمنافسات ، ولذا استغل الرومان هذا الانقسام ، فاستعانوا بالبعض ضد البعض الآخر .

---

(١) Ibid.

(٢) Bury, II, P. 141.

الخلاصة يمكن القول : إن الظاهرة المميزة لتاريخ شمالى أفريقية منذ طرد الوندال ٥٣٤م حتى الفتح العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى ، هو الحروب المتصلة ضد البربر ، تخللتها فترات هدوء قصيرة ، ولم تنجح الحكومة الرومانية البتة فى يوم ما فى فرض سيادتها الكاملة وسيطرتها التامة على الوطنيين[١] .

أما أسباب سقوط دولة الوندال فتتلخص فى عدة عوامل ، منها : أن عدد الوندال كان قليلاً بالقياس إلى عدد رعاياهم من المستوطنين الرومان والبربر الوطنيين حقيقة زاد عددهم إلى ثلاثة أمثال العدد الأصلى الذى غزا أفريقية ، ومع ذلك ظلوا أقلية صغيرة غريبة من الناحية الجنسية . ورغم أن الوندال أقاموا فى أفريقية نحو قرن من الزمان ، وعاشوا بين المستوطنين الرومان أو الرومان الأفريقيين Romano-Africano ، ولا سيما فى الولاية القنصلية وبيزاكينا ، واستعاروا الكثير من نظم الإدارة الرومانية ، وإلى حد ما أبقوا على اللغة اللاتينية ، بل أن منهم من شجع الآداب اللاتينية ، رغم كل ذلك فإن الوندال ظلوا منفصلين عن أهل الولايات الذين لم يصفو لهم النية ، ولم يندمجوا فيهم ، حقيقة أن دركونتيوس Dracontius [٢] الشاعر والخطيب المعاصر للملك الوندالى جنتاموند (٤٨٤ — ٤٩٦م) يقول بأن أطفال الوندال والأفريقيين كانوا يترددون معاً على مدرسته، وكان يمكن أن يتم التقارب والامتزاج على طول الزمن ، لكن لم يكن كافياً لتحقيق الامتزاج بين العنصرين .

هذا ولم يتعد حكم الوندال الفعلى عن المنطقة المحيطة بقرطاجنة وهيبو رجيوس، أى ولاية أفريقية — وهى تونس الحالية تقريباً ، أما طرابلس ونوميديا وموريتانيا فكانت فعلاً فى يد الأمراء والبربر وإن عدت هذه الأجزاء ضمن مملكة الوندال

---

(١) Ibid, PP. 142-43.

(٢) دراكونتيوس الشاعر الأفريقى ، أعظم الشعراء المشهورين فى تلك الفترة الحالكة فى الأدب اللاتينى ، وربما كانت الشخصية الوحيدة التى برزت فى بيت الوندالية .

ولا يعترفون إلا بالسيادة الإسمية للوندال ؛ ولم يكن التوسع ، فى عرف الوندال ، هو تدعيم سيطرتهم واستقرارارهم شرقاً وغرباً على طول الساحل، وإنما كان مدلوله لديهم هو القرصنة البحرية ، وهناك الخلاف المذهبى العنيف ، فقد عرف الوندال بتعصبهم الشديد للأريوسية وهى هرطقة ، إن لم تكن كفراً فى نظر الأرثوذكسى أو الكاثوليكى ، ولم يفعل الوندال ما فعله أشقاؤهم من الجرمان الآخرين مثل القوط الشرقيين أو الغربيين ، وتسامحوا مع رعاياهم الكاثوليك ، ولذا تعد الأريوسية سبباً جوهرياً فى زوال ملك الدول الجرمانية التى دانت بها(١) .

ثم إن جزريك ، ملك الوندال ، كان قد هدم جميع أسوار المدن ، باستثناء المدن التى أقام فيها الوندال تحصينات وندالية جديدة ، مثل قلعة سوتا المطلة على الزقاق ، وهيبورجيوس وقرطاجنة ، واعتقد جزريك أن هذا يحول دون تمرد السكان ، ويحرم الجيوش الغازية من استخدام هذه التحصينات ، ولكن الأمر جاء على عكس ما تصور ملك الوندال ، إذ أن إزالة الأسوار وهدم الحصون، يسهل مهمة الغازى أكثر من تعويقها ، والذى حدث فعلاً خلال تقدم بلزاريوس ، أنه لم يلق مقاومة تذكر(٢) . كذلك دل هذا التدبير الوندالى ، من ناحية أخرى ، على قصر نظر زعيم الوندال ، ولذا يمكن أن يقال إن منشىء دولة الوندال فى شمالى أفريقية ، قد وضع بذور ضعفها وانهيارها(٣) .

يضاف إلى ذلك ، تلك الحملات المتكررة من جانب روما وبيزنطة ، وكثرة المعارك التى خاضها الوندال ضد ثورات البربر الوطنية ، فهؤلاء لم يخضعوا لحاكم قط ، فقد دوخوا الرومان من قبل ، ورغم إن جزريك قمهم مؤقتاً ، وذلك بتجنيدهم فى جيشه ، كما فعل الرومان سابقاً ، فإن خلفاء جزريك قد تعرضوا

---

(١) راجع (Bury, II, P. 12° ; Schmidt, P. 322)

(٢) راجع ما سبق .

(٣) Oman, P. 10 ; Hodgkin, PP. 523-24.

لثورات مستمرة من جانب البربر ، واشتبكوا معهم فى حروب متقطعة ، ولكنها ليست حاسمة ، ولا سيما ضد بربر جبل أوراس[١] . فمثلا حدث زمن هنريك (٤٧٧ — ٤٨٤ م) أن اكتسح البربر من سكان جبال أطلس ، المستوطنين الرومان والوندال على السواء ، ومات هنريك وهو يستعد لحربهم[٢]، كذلك شغل تراساموند (٤٩٦ — ٥٢٣) فى حرب طويلة ضد البربر ، مما حمله على مهادنة الكاثوليك ليتفرغ للبربر ، وفى زمنه أفنى البربر عدداً كبيراً من الوندال . والملاحظ أن طرق البربر فى حربهم فضلا عن أسلحتهم الطويلة واستخدام الجمال ، وإتقان حرب العصابات والاختفاء فى الصحراء التى خبروا دروبها ومسالكها ، كل ذلك أنهك الوندال وأضعفهم ؛ ويقال أن خيول الوندال كانت تجفل من منظر الجمال وحركاتها[٣] . ولم يكن البيزنطيون الذين خلفوا الوندال فى شمالى أفريقية بأحسن حالا من أسلافهم ، فيما يتعلق بمتاعب البربر وثوراتهم .

أما القول بأن مناخ أفريقية ، لم يكن ملائماً للوندال ، فهو وإن كان يختلف عن مناخ البقاع الباردة التى هبطوا منها ، إلى أنه ليس أساسياً ، إذ أن الوندال منذ دخولهم أسبانيا فى عام ٤٠٩ م ثم أفريقيــة فى عام ٤٢٩ م ، كانوا تعودوا على هذا المناخ وألفوه ، ولكن ليس معنى هذا التقليل من أهمية هذا العامل الجغرافى ، فالواقع أن المائة عام التى قضــاها الوندال فى أفريقية ، قد غيرتهم ، فأمسوا أقل قدرة على الحرب ، وأقل رغبة فيها ، ولا سيما بعد أن انغمسوا فى اللهو والترف والرخاء ، فى ذلك الجو الأفريقى الدفىء ، حتى أنه منذ وفاة جزريك ، يمكن أن يقال أن روحهم الحربية قد ضعفت . بل إن من بين الوندال أنفسهم زمن جليمر (٥٣٠ — ٥٣٤) آخر ملوك الوندال ، من كان يتطلع إلى منقذ من الرومان ، ليقضى على الأحقاد والتنافس والانقسامات التى مزقت صفوف الوندال .

---

(١) Basset, op. cit..

(٢) Oman, P. 11.

(٣) Deanesly, P. 81.

وإذا سأل سائل ، عن الدور الذى أسهم به شمالى أفريقية فى نقل المدنية الرومانية والتراث الرومانى ، فإن هذا السهم كان كبيراً ، غير أنه تم قبل وصول الوندال إلى أفريقية بصفة أساسية[١] . حقيقة أبقى الوندال على كثير من مظاهر المدنية الرومانية ، سواء فى الإدارة أم فى إقامة المؤسسات والعمائر على النسق الرومانى ، ولا سيما زمن ثراساموند ، إلاأن ذلك كان قليلاً ، ولم يضيف الوندال شيئاً جديداً . ويذكر للملك الوندالى ثراساموند (ت ٥٢٣م) إن عهده اشتهر ببعض الهدوء ، وأنه كان يشجع الأدب ، وفى عهده وعهود خلفائه من بعده ، قام نشاط أدبى ملحوظ فى أفريقية الوندالية ، فمثلاً برز الشاعر دراكونتوس Dracontius زمن ثراساموند ويعد أعظم شعراء اللاتينية فى تلك الفترة ، وتغنى الشاعر Florentius بمدح ثراساموند ، وكذلك الشاعر فيلكس Felix ؛ وكتب الشاعر لكسوريوس Luxorius فى رثاء دوميرا Domira الطفلة إحدى قريبات الملك الوندالى هلدريك (٥٢٣ — ٥٣٠)[٢] . والملاحظ أن مثل هذا النشاط كان يقوى زمن هدوء العلاقات بين الوندال وبيزنطة ، كما كان الشأن زمن هلدريك الذى كان صديقاً لبيزنطة ، نظراً لصلة القرابة الدموية ، إذ كان جده فالنتنيان الثالث ، وقامت علاقة ود وصداقة بينه وبين الأمبراطور يوستانيوس ، حتى حاول أن يجعل مملكته تابعة لبيزنطة ، فلما طرده جليمر ، تدخل يوستانيوس[٣]

والواقع ، أن الوندال لم يتشبعوا بالمدنية الرومانية ، ويعملوا على تقليدها ، كما فعل القوط الشرقيون والغربيون[٤] والفرنجة مثلاً ، ولم يصيبوا من الروح

---

(١) راجع ما سبق فى القسم الأول من البحث .

(٢) Bury, P. 125 ; Schmidt, P. 322

(٣) راجع ما سبق .

(٤) انظر دولة القوط الغربيين للمؤلف .

الرومانية Romanitas إلا بعض قشورها ، منذ غادروا مواطنهم فى وديان المجر الفسيحة وشقوا طريقهم إلى أفريقية .

ورغم أن حكمهم امتد فى أفريقية مايقرب من قرن من الزمان ، منذ استيلائهم على قرطاجنة فى ٤٣٩م حتى استسلام جليمر للكونت بلزاريوس فى مطلع عام ٥٣٤م ، فإن الآثار التى خلفوها ، لم تعد أدوات زينة وأوانى منزلية ، تدل فى زخرفتها على الطابع الجرمانى أو البربرى الذى عرف عند الشعوب الجرمانية الأخرى . فمن الآثار الوندالية التى عثر عليها : بعض رؤوس الدبابيس والمشابك والأبازيم والجوهرات ؛ فعثر قرب مدينة هيبورجيوس (بونا الحالية) فى أحد قبور الوندال على بعض المجوهرات وأدوات الزينة ، وعثر فى قبر سيدة وندالية على عقد جميل من العقيق والزجاج الأحمر والأخضر ؛ ووجد فى قبر رجل وندالى مشبكان كبيران ، مما يستعمل لتثبيت الثوب على الكتف ، وكذلك وجدت مجموعات أخرى من هذه الأدوات ، وعلى بعضها صور المحار بين ؛ وربما تلتمس أصول الزخرفة الوندالية ، ولا سيما فى الألوان التى استعملوها مثل اللون الأزرق والأحمر والأخضر ، فى الفن الذى ساد فى جنوبى روسيا ، وهذه على أية حال دون مثيلاتها من الجوهرات القوطية والميروفنجية(١) .

وربما كان أهم من هذا ، من حيث الأثر التاريخى للوندال ، هو أن فتح الوندال لإفريقية ، وتقدمهم لها ، لا يمكن تجاهله عند دراسة أوربا الجرمانية ، فإن حركات الوندال دون غيرهم من حركات الشعوب الجرمانية ، كانت عاملاً هاماً فى التطور الاقتصادى لأوربا ، لأن سيادة الوندال على البحر المتوسط وتحكم أسطولهم فيه ، وقطع التجارة الرائجة بين الموانىء التجارية الشهيرة أمثال : بيزنطة وأزمير وصيدا والأسكندرية ولبدة (Leptis) وقرطاجنة وأوستيا ومرسيليا ، أدى ذلك

---

(١) Deanesly, PP. 77-78.

إلى نقل أوربا من طور الاقتصاد المعتمد على نقود الأمبراطورية الرومانية بصفة أساسية إلى طور الاقتصاد القائم على الاكتفاء الذاتى بقدر المستطاع ، وذلك داخل الممالك الجرمانية التى قامت على أنقاض الأمبراطورية الرومانية(١) .

* * *

ومن العجيب أن الوندال اختفوا من التاريخ نهائياً ، إذ تفرق من بقى من شراذمهم فى أطراف الأمبراطورية الرومانية ، وعلى حدود فارس(٢) ، أما من بقى فى أفريقية ، فقدصودرت أملاكهوأنزل إلى مرتبة الرقيق ، كما فعل االوندال أنفسهم من قبل ، مع سادة المستوطنين الرومان فى أفريقية . وإذن ، فالوندال ، من أولئك البرابرة الذين لم يتركوا أثراً فى التاريخ ، ومثلهم فى ذلك مثل أشقائهم الجرمان من الهيروليين والروجيين Rugin والقوط الشرقيين والسويفى ، ولم توجد إلا آثار ضئيلة من بقايا اللغة الوندالية(٣) .

* * *

أما عن أحوال شمالى أفريقيــة بعد طرد الوندال ، فيمكن أن تلخص فى الاضطراب المستمر من جانب البربر الوطنيين ومن جانب الحامية الرومانيــة نفسها . والمعروف أن البيزنطيين حكموا شمالى أفريقية ، على أثر طرد الوندال ٥٣٣/٥٣٤م إلى منتصف القرن السابع الميــلادى ، عندما جاء الفتح العربى الاسلامى ، أى ما يربو على قرن من الزمان .

الظاهرة الـكبرى المميزة لتاريخ شمالى أفريقية ، خلال ذلك القرن ، هى الصراع الدائم ضد الوطنيين من البربر ، ولاعبرة لفترات الهدوء القصيرة الأجل ،

---

(١) Deanesly, PP. 116 Sqq.

(٢) راجع ما سبق

(٣) Kartsen, PP. 219-220 ; Boissonnade, PP. 18-26.

التى كانت تتخلل ذلك الصراع ، بل إن خطر البربر الوطنيين بدأ فعلا ولما يزال بلزاريوس فى أفريقية ، وقبل أن تستقر أوضاع السيادة البيزنطية الجديدة ، أو تنظم قوة دفاعهم عن الولاية . وكما دوخ البربر ، الوندال من قبل ، كذلك لم يكن البيزنطيون بأسعد حالا من أسلافهم فى حكم تلك البقاع(١) .

وخلال الفترة التى تلت زوال السيادة الوندالية مباشرة ، كان البربر يكونون ثلاث مجموعات رئيسية فى ساحل شمالى أفريقية :

١ — فى الشرق قبيلة لواته وأحلافها من القبائل البربرية الأخرى مثل هوارة وأوريغة ونفراوة وأوربة . وهذه تنتشر فى طرابلس و برقة وجبل أوراس وماوالاه .

٢ — صنهاجة فى الغرب ، وتنتشر فروعها داخل المغرب الأوسط والمغرب الأقصى . وتشمل كتامة وزواوا وزناتة و بنى فريدة وغماراو برغواطة ومصمودةوجزولة ولمطة ، و يلاحظ أن صنهاجة وفروعها هم المعروفون بالملثمين(٢) .

٣ — زناتة وتنتشر فروعها فى منطقة ممتدة من طرابلس شرقاً إلى الغرب(٣) .

أى أن جميع الساحل الأفريقى كان مهدداً دائماً بهذه القبائل فى أى جزء من أجزائه .

---

(١) Basset, op. cit.

(٢) الاستقصاء جـ ٢ ص ٣ .

(٣) Bury, P. 141 ;Basset op. cit.

وظهر فى تلك الفترة زعماء من البربر ، أمثال يبداس Yabdas ويتزعم بربر جبل أوراس ، ويتزعم البربر فى موريتانيا إثنان هما ماسيناس Massinas وماسونا Masuna ، وكذلك الزعيم أنتالاس Antalas فى بيزا كينا — وهى ولاية أفريقية الرومانية سابقاً أى تونس الحالية تقريباً — وبجواره الزعيم كاتسنا Cutsina [١].

لم يكف البربر عن مهاجمة الحاميات الرومانية ، الموزعة فى مواقع متباعدة ، ومهاجمة سكان المدن من المستوطنين الرومان ، وربما كان بربر جبل أوراس من أخطر القبائل البربرية التى هددت المدن الساحلية .

وكان باستطاعة القوات البيزنطية أن تحمى الحدود الطويلة الممتدة ، ضد هجمات البربر ، ولا سيما وأن البربر يعتمدون على فرق الفرسان الخفيفة ، مع العلم أن البربر يتفوقون على الرومان بأعدادهم الكبيرة ، غير أنه يمكن التغلب على قلة عدد الرومان بالنسبة للبربر ، إذا أخلص جنود الحامية الرومانية فى أداء واجباتهم ، وإذا كفوا عن الأحقاد والضغائن الفاشية بينهم ، وإذا نجح قادتهم فى سياستهم ؛ ولكن هذا كله ، افتقر إليه البيزنطيون فى شمالى أفريقية ، ولم يكن للسيادة البيزنطية أن تظل قرناً فى شمالى إفريقية ، إلا لإنقسام قبائل البربر أنفسهم وكثرة الصراع بينهم ، فهذا وحده هوالذى مزق وحدة البربر ، حتى كان الرومان يستعينون بفريق ضد آخر ، كما حدث فى انتصار القائد الرومانى تروجليتا Troglita على قبائل لواته فى طرابلس الذين هاجموا الرومان بزعامة كاركسان Carcasan عام ٥٤٧ م فلم يتحقق النصر على لواته إلا بفضل مساعدة بربر حيل أوراسى [٢] .

---

(١) Bury, P. 141.

(٢) Bury, PP. 147-48 ; Basset op. cit.

يضاف إلى ذلك كثرة تمرد جنود الحامية الرومانية فى شمالى أفريقية ، لتأخير رواتبهم باستمرار ، وللخلاف المستحكم حول اقتسام الغنائم ، فضلاً عن وجود عدد كبير من الأريوسيين ، وهم الذى يكونون فرق المعاهدين ، التى تحارب بين صفوف الرومان ، أساء هذا الفريق ، سياسة التعصب الدينى التى مارسها الرومان ضد الأريوسية ، إذا أعيدت الكنائس التى انتزعت من الكاثوليك زمن الوندال ، إلى ما كانت عليه ، وهناك عدد كبير من الرومان الذين تزوجوا من النساء الونداليات ، وحاولوا استرداد الأملاك التى كانت لزوجاتهم أو آبائهن السابقين زمن السيطرة الوندالية ، وصادرتها الحكومة الإمبراطورية وأعادتها إلى ما كانت عليه سابقاً ، مما أدى إلى وجود مشاكل معقدة لإثبات حق الملكية، فضلاً عما تخلل ذلك من تزوير الوثائق وقيام قضايا لاحصر لها(١) .

ثم إن السياسة الأمبراطورية فشلت فى إقرار السلام الدائم فى شمالى أفريقية ، حقيقة هى نجحت فى حماية الحدود ، وفى الاحتفاظ بالسيطرة الرومانية ، لكنها لم تنجح فى إقامة سلام مستمر ، والدليل على ذلك كثرة الولاة الذين تعاقبوا الحكم فى أفريقية زمن الأمبراطور يوستانيوس نفسه ، وكثرة الشقاق الذى وقع بين هؤلاء القادة الولاة و بين جنودهم . وفشل هؤلاء الحكام فى الضرب على أيدى البربر. وأول هؤلاء الولاة ، بعد بلزاريوس ، هو القائد سولومون الذى صحب بلزاريوس فى الفتح وولى الحكم بعد رحيل بلزاريوس ، بلقب جديد هو قائد جيش أفريقية، اضطر إلى الهرب من أفريقية إلى صقلية أمام غزوة البربر الكاسحة فى عام ٥٣٦م وخلفه جرمانوس Germanus الذى ظل سنتين ، ثم أعيد سولومون (٥٣٩م) ، لكنه ذبح فى معركة كليوم Cllium عام ٥٤٤م أمام قبيلة لواته وأحلافها ، وشجع هذا النصر قبائل البربر الأخرى فهاجمت الأملاك الرومانية ، حتى أن القوط الغربيين فى أسبانيا ، أغراهم فشل الرومان فأرسلوا جيوشهم عبر الزقاق

---

(١) Bury, P. 143.

واستولوا على ميناء سوته ؛ وكان خليفة سولومون فى أفريقية سرجيوس Sergius دوق طرابلس ، الذى كان السبب بسوء تدبيره وجبنه وقصر نظره ، فى إثارة لواته وغيرها ، ووقع سرجيوس فى شقاق مع جنوده ، فعين الأمبراطور اريوباندوس Areobandus قسيماً له فى السلطة ، ولما لم يتفقا ، أعفى سرجيوس وانفرد زميله بالحكم(١) . ومع ذلك ظلت الأحوال مضطربة ، وفشل فى إقرار النظام ، وخلفه تروجليتا Troglita ، وهكذا لم يستقر الحكم الرومانى فى شمالى أفريقية فى وقت من الأوقات .

وبالإضافة إلى هذه الاضطرابات ، وتمرد الجنود ، وسوء الإدارة ، وقع طاعون فى مطلع حكم البيزنطيين فى شمالى أفريقية ، بعد القضاء على دولة الوندال ، واستمر من ٥٤٢ إلى ٥٤٣ م ، وقضى على أعداد كبيرة من سكان الأمبراطورية . ومن بين ضحاياه ، عدد ضخم من الرومان فى شمالى أفريقية(٢) .

وهذا كله عبد الطريق للفتح العربى الإسلامى فى منتصف القرن السابع الميلادى .

ابراهيم على طرخان

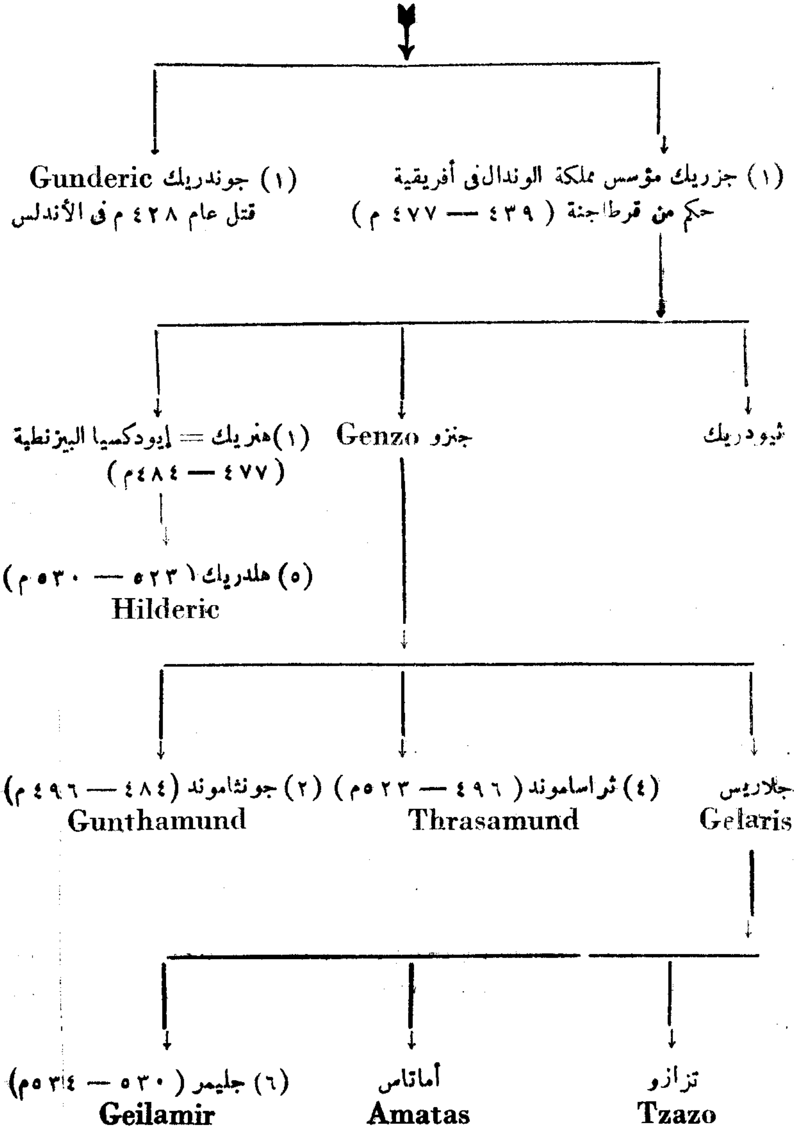
---

(١) Ibid. P. 146.

(٢) Bury, op. cit. P. 135 ; راجع ما كتبه مؤنس فى (فتح العرب للمغرب) ص ١١ — ٤٧ .

(ملوك الوندال فى أفريقية)

٤٣٩ — ٥٣٤ م



الأباطرة الرومان المعاصرون لدولة الوندال

منذ قيامها فى أفريقية ٤٢٩ إلى زوالها ٥٣٤ م

رقم مسلسل	اسم الأمبراطور	مدة حكمه	ملاحظات
١	هونريوس Honorius ابن ثيودوسيوس	٣٩٥–٤٢٣ م	
٢	حنا الموثق Joannes	٤٢٣–٤٢٥	قتله جيش الشرق
٣	فالنتنيان الثالث Valentinian III	٤٢٥–٤٥٥	حكم بوصاية أمه بلاسيديا ابنة هونوريوس ، وقتله أنصار أيتيوس
٤	ماكسيموس Petr. Maximus	٤٥٥	مات بعد ثلاثة شهور
٥	أفيتوس Avitus	٤٥٥–٤٥٦	رشحه القوط الغربيون وعزله ريكمر صانع الأباطرة وتحكم فى السلطة حتى أبريل ٤٥٧ م
٦	ماريوريانوس Majorianus	٤٥٧–٤٦١	أعظم أباطرة تلك الفترة
٧	ساويرس Severus	٤٦١–٤٦٥	رشحه ريكمر ، وتحكم فى السلطة بعد وفاته إلى ٤٦٧ م
٨	أنثميوس Anthemius	٤٦٧–٤٧٢	مرشح الشرق ، عزله ريكمر وقتله
٩	أوليبريوس Olybrius	٤٧٢	رشحه ريكمر والوندال
١٠	جليكريوس Glycerius	٤٧٣–٤٧٤	رشحه البرجنديون طرده أورستيز Orestes زعيم المعاهدين
١١	يوليوس ينبوس J. Nepos	٤٧٤–٤٧٥	رشحته بيزنطه
١٢	روملوس أوغسطلوس R. Augustlus	٤٧٥–٤٧٦	ابن أورستيز ، طرده أدواكر وقتل أباه عام ٤٧٦ م ، وأقام حكومة فى ايطاليا من ٤٧٦ – ٤٩٣ م .
١٣	زينو Zeno	٤٧٤–٤٩١	إمبراطور الشرق والغرب ؛ وافق على تبعية حكومة ادواكر للعرش البيزنطى . لكنه استعدى عليه القوط الشرقيين .
١٤	أناستاسيوس الأول Anastasius I	٤٩١–٥١٨	
١٥	جستين الأول Justin I	٥١٨–٥٢٧	
١٦	يوستانيوس Justinianus	٥٢٧–٥٦٥	قضى على دولة الوندال فى أفريقية وأعاد شمالى افريقية إلى السيادة الرومانية البيزنطية ٥٣٣/٥٣٤ م .

القرماطيـــون

ظهر هذا الاسم فى المصادر العربيـة ، لأول مرة فيما نعلم ، فى أخبار ثورة الزنج التى قامت فى البصرة وهددت كيان الدولة العباسية ما يقرب من أربعـة عشر عاماً (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ / ٨٦٩ — ٨٨٣ م)[١] .

ولعل أكثر الذين اشتركوا فى هذه الثورة كانوا من الذين نزحوا من البلاد الأفريقيـة ، ولا سيما بلاد الزنج (أى السومال) ، واستخدمهم ملاك الأرض فى إزالة الطبقة الملحية — السباخ — التى تغطى الأراضى فى سهول البصرة ، وكشف التربة الصالحة للزراعة ، ونقل السباخ وجعله فى أكوام أو تلال للافادة منه فى الوقت نفسه[٢] .

كان من بين هؤلاء الإفريقيين زنج سوماليون كما قلنا ، ولعلهم كانوا أكثر عدداً لقرب بلادهم من العراق وسهولة النزوح إليـه ، وكان منهم النوبة الذين انتقلوا من سودان وادى النيل ، وكان منهم «القرماطيون» ، وهم — كما سنرى — جنس من أجناس السودان الغربى .

اشتهر من القرماطيين فى هـذه الثورة « راشد القرماطى » ولعب فيها دوراً هاماً[٣] .

---

(١) أهم ما كتب عن ثورة الزنج :

ا — تاريخ الطبرى ح ١١ (ط الحسينية بمصر)

ب — Nöldeke, Sbetches From Eastern Hist. (Lordon 1892)

ج — عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة (ط بغداد ١٩٤٥) ص ٧٥ — ١٠٥

د — ثورة الزنج لفيصل السامر (طبغداد ١٩٥٤)

(٢) فيصل السامر ص ٢٣ ، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مجلد ١٠ (زنج).

(٣) تاريخ الطبرى ١١/١٧٤ .

ذكر المسعودى أن أول من صنف فى أخبار ثورة الزنج فى العراق محمد بن الحسن بن سهل المتوفى حوالى ٢٨٥ هـ[١] . ولا نعرف عن هـذا الكتاب إلا ما نقله عنه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (مثلاً ج ١١ ص ١٩٠) . ولم يحفظ لنا الزمن وصفاً معاصراً كاملاً لثورة الزنج إلا ما أورده ابن جرير الطبرى فى تاريخه (ولد الطبرى ٢٢٤ هـ وتوفى ٣١٠ هـ) .

لهذا يعد تاريخ الطبرى من أقدم المصادر التى روت أخبار هذه الثورة ودور القرماطيين فيها . ولابد أن يكون الطبرى قد عاصر أحداث هذه الثورة وشهد بعضها على الأقل .

ومن بعـده أشار المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) إلى « القرماطى » من بين الشعوب السودانية التى أمعنت فى المغرب وذكر أن لهم ملكاً ودار مملكة[٢] .

وهناك كاتب عربى آخر ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وهو المقدسى ، أورد فى كتابه « أحسن التقاسيم » (كتبه حوالى ٣٨٥ هـ / ٩٨٥م) تعريفاً سريعاً موجزاً بالقرماطيين ، فوصفهم بأنهم جنس من أجناس السودان الكثيرة التى تتاخم أرضهم بلاد المغرب ومصر من قبل الجنوب ، وأنهم يتعاملون بالملح ، والنوبة والحبشة بالثياب[٣] .

وفيما عدا هـذه المصادر لا نكاد نجد من كتاب العرب من أضاف شيئاً جديداً إلى الإشارات القليلة التى وردت فيها . وهـذا أمر يسترعى انتباهنا ، ويدعونا إلى أن نتساءل عن حقيقة هـذا الاسم ، وكيف نعلل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن أخبار هذه الجماعة وتاريخها ؟ .

---

(١) مروج الذهب (نشر محيى الدين عبد الحميد) ٤/١٩٥ .

(٢) مروج الذهب (ط مصر نشر محيى الدين عبد الحميد) ج ٢ ص ٢٠ (القوماطى صوابها القرماطى) .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

أما التعرف على حقيقة هذه التسمية ، فالسبيل إليه أحد احتمالين : فإما أن يكون لفظ القرماطيين قد أطلق على هذه الجماعة بعد انتقالهم إلى العراق ، كأن يكون مشتقاً من لهجة أو مصطلح عراقى ، فهو فى هذه الحالة ليس مكتسباً من موطنهم الإفريقى الأول . وإما أن يكون هذا الإسم — من مادته الأصلية — علماً معروفاً على شعب قديم من شعوب السودان الغربى حملوه معهم من موطنهم الإفريقى .

وإذا كان من اليسير أن نرد بعض الأسماء التى أطلقت على زنوج البصرة إلى مصطلحات محلية نشأت فى العراق ، مثل قولهم : الفراتية ، وهم الزنوج الذين سكنوا منطقة فرات البصرة ، والشورجية ، وهم الزنوج الذين عملوا فى إزالة الشورج ، وهو الزبد الملحى الذى كانت تجلبه المياه إلى أرض العراق الأدنى ثم تنحسر عنها — فليس من اليسير أن نرد كلمة مثل « القرماطيين » إلى اصطلاح عراقى . ولا أظن أن الأستاذ ماسينيون قد أدرك وجه الصواب فيما أورده فى مقالتيه : الزنج والقرامطة[1] من ربط مصطنع بين لفظى القرامطة والقرماطيين . ويقول فى مقالته الثانية (والأكثر احتمالاً أن يكون لفظ القرامطة مأخوذاً من لهجة « واسط » الآرامية المحلية إذ ورد فيها لفظ (قرمطا) ومعناه المدلس . وقبل أن تقوم حركة القرامطة بسنوات ، أى منذ سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨ م ، ظهرت فى هذه المنطقة ذاتها ، فرقة تسمى « القرماطية » إلى جانب فرقة الفراتية ، وكانت من بين فرق الجند المحاربة فى ثورة الزنج .

فالواقع أن محاولة الربط بين هذين اللفظين هى خلط بين جماعتين وحركتين ، مبنى على مجرد التشابه اللفظى . وإذا جاز أن يكون لفظ القرامطة مشتقاً من لهجة محلية ، على اعتبار أن معظم أفرادهم كانوا من العرب والأنباط الذين رسخت

---

(١) الأولى فى دائرة المعارف الإسلام (مجلد ١٠ – الترجمة العربية) والثانية فى
Shorter Encye of Islam (Karmitians)

أصولهم فى البيئة العراقية وما جاورها من عهود بعيدة ، فإنه من المستبعد أن يكون لفظ القرماطيين من نفس الاشتقاق ، ولا سيما إذا عرفنا أن حركة الزنج قد اختلفت إلى حد كبير ، فى زمانها ووسائلها وطبيعتها عن حركة القرامطة ، وأن الوصف الذى أورده كل من المسعودى والمقدسى عن القرماطيين قد أكد أنهم جنس كسائر أجناس السودان ، ولم يشر أى منهما إلى صلتهم بالبيئة العراقية ، ولا ولا بثورة الزنج فى العراق . وكلاً منهما — على اقتضابه — يدل على أنهم جنس معين فى إفريقية ، لهم طريقة فى التعامل (فى موطنهم الإفريقى طبعاً) تختلف عن طريقة النوبة والحبشة ولهم ملك ودار مملكة . فالأرجح أن يكون إسمهم مكتسباً من موطنهم الأصلى فى أفريقية ، وأن يكونوا قد حملوه إلى العراق ، كما حمل الزنج والنوبة إسميهما من أفريقيـة واحتفظوا بهما فى المهجر العراقى وغـيره من المهاجر .

وهنا نقف عنـد السؤال الثانى : كيف نعلل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن التعريف الكافى بهذا الشعب وتاريخه فى موطنه الأفريقى ، على الرغم مما نعرفه من حرص هؤلاء وأولئك على تدوين كل ما انتهى إليهم عن شعوب السودان وممالكهم وأخبارهم ؟

والواقع أن الشعوب التى عرفها العرب فى منطقة السودان الغربى وتحدثوا عنها حديثاً مفصلاً ، هى الشعوب التى برزت فى صورة ممالك أو سلطنات اسلامية واستمرت علاقاتها بالعالم الإسـلامى زماناً غير قصير . ولا ريب فى أن أكثر شعوب السودان الغربى قد أبرزها النشاط الإسلامى والنشاط التجارى متضافرين فى تلك العصور ، فلمعت أسماؤها فى ميادين الحرب والسياسة والتجارة والدعوة إلى الإسلام ، وظفرت بنصيب غير قليل مما كتبه العرب .

ولم يكن القرماطيون — على ما يظهر — من جملة هذه الـكثرة الغالبة من شعوب السودان الغربى التى لمعت أسماؤها ، ولم يتح لهم فى بلادهم — فى العصور

الإسلامية — ما أتيح لإخوانهم من فرص التفوق فى أى مجال من المجالات المشار إليها . ومن أجل هذا — فيما نرجح — أغفل المؤرخون العرب ذكرهم إلا فى القليل النادر .

وإذا أردنا أن نبحث عن مثال من تلك الشعوب القليلة التى ضعف شأنها بانتشار الإسلام فى المنطقة الواقعة جنوبى بلاد المغرب ، فإن لدينا حالة معينة ذكرها الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » ، وهى حالة أهل « ودان » إذ يقول[١] : « وأما أرض ودان فإنها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر ، وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة ، وكان الملك فى أهلها ناشئاً متوارثاً ، إلى أن جاء دين الإسلام ، فخافوا من المسلمين ، فتوغلوا هرباً فى بلاد الصحراء فتفرقوا ، ولم يبق بها الآن إلا مدينة « دواد »[٢] وهى الآن (أى فى القرن السادس الهجرى) خراب ليس بها إلا بقايا قوم من السودان معايشهم كدرة وأمورهم نكدة .

ولعل هذا النص يعبر عن جزء من حادث كان أوسع مجالاً مما ذكره الإدريسى . فلم تكن أرض ودان — فى حقيقة الأمر — إلا مركزاً واقعاً فى طريق تجارى طويل عامر بسكانه ، أهم مراكزه : فزان — جرمه — ودان. وكان هذا الطريق مزدهراً منذ عصور قديمة ، قبل الإسلام ، وظل كذلك ، إلى أن تفرق أهله بسبب الغزوات الإسلامية من جهة ، واشتداد العواصف الرملية وعجزهم عن مقاومتها من جهة أخرى ، مما حدا بالتجار إلى التحول عنه إلى طريق آخر هو : طريق سجلماسة — أودغشت — منحنى النيجر .

عاش على ذلك الطريق التجارى (طريق فزان . جرمه . ودان) ، منذ

---

(١) وصف أفريقيا الشمالية (قطعة من نزهة المشتاق للادريسى) تحقيق بيريس (ط الجزائر ١٩٥٧) ص ٢٣ .

(١) قرأها بالمر (The Bornu, Sahara & Sudan 1936,) (واو) وربما صحتها (ودان) .

عصور ما قبل الميلاد ، شعب سماهم اليونان الجرمانت Garamantes ، ازدهروا في زمان المؤرخ هيرودوت (حوالى ٥٠٠ ق م) وامتدت مساكنهم على طول ذلك الطريق . وفي جنوب فزان تقع منطقة جرمه Garama التي نسبوا إليها ، وهي مركزهم الأول ، وفيه استقرت جماعات منهم ، ونالت نصيباً من الحضارة ، وامتصت قدراً صالحاً من الثقافة المصرية أو الليبية القديمة ، واستخدمت مركبات الخيل . ومنهم من امتدت مساكنهم إلى داخل الواحات الواقعة غربي مصر . فإذا اتجهنا إلى المراكز الجنوبية من هذا الطريق ، وجدنا فريقاً من الجرمانتيين قد ضربوا خيامهم في الصحارى الجنوبية ، بعيداً عن مركزهم الأول « جرمه » ، وبلغت مساكنهم واحة العوينات . ومنهم جماعات أقاموا في المنطقة التي سميت فيما بعد « بلاد الكانم » ، وفي تيبستي[1] .

ويتضح من هذا كله أن الجرمانتيين كانوا قائمين على مراكز هذا الطريق ، وما تفرع منها إلى الشرق . وظلوا كذلك في خلال عصور ما بعد الميلاد ، إسماً لامعاً يجد عناية المؤرخين من اليونان والرومان ، ويملك قدراً كبيراً من السيطرة والنفوذ .

ثم هجر التجار هذا الطريق في العصور الإسلامية الأولى للأسباب التي ذكرنا ، وتفرق أهله ، وتقطعت الوشائج بين جماعات الجرمانتيين ، والتمس بعضهم سبيل الهجرة إلى مناطق أخرى ، وصارت كل فئة وقد اختلطت بعناصر حامية وزنجية مختلفة على حسب مؤثرات البيئات التي عاشوا فيها أو انتقلوا إليها ، وعرفت فئات منهم بإسم خاص غير الإسم القديم المشترك . فهؤلاء الذين عاشوا في تيبستي وما حولها كانوا هم النواة التي كونت جماعة « التبو » . ولعل هذه الجماعة نفسها هي التي عرفت في شمالي دارفور بإسم الجروان أو القرعان . ولا تزال بقاياهم تؤلف جزءاً من سكان دارفور في الوقت الحاضر .

---

(١) بالمر ص ٤ ، ٨ ، ١٧ هامش .

أما الإسم القديم المشترك ، وهو الجرمانتيون ، فلا يطلق فى الوقت الحاضر على أية جماعة من هذه الشعوب التى تسكن إفريقية . فقد عفى عليه الزمن ، واندرج فى طى النسيان على مر العصور .

على أنه من المستغرب أن يختفى إسم الجرمانتيين دفعة واحدة حتى من المصادر العربية المبكرة ، ولا سيما إذا عرفنا أن العرب المسلمين لابد أنهم أدركوا فترة ما من قوة هذا الشعب ، قبل أن يصل إلى حضيض الوهن والضعف والتفرق . بل لقد عرف الفاتحون الأولون من العرب المسلمين ، مدينة « جرمة » مركز الجرمانتيين الأول ، فعندما قدم عقبة بن نافع « ودان » وافتتحها سأل أهلها هل من ورائكم أحد ؟ فقيل له : جرمه وهى مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثمانى ليالٍ من ودان ، فدعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا(١) .

وقد يزول هذا الأمر المستغرب ، إذا انتهينا إلى احتمال أن يكون بعض كتاب العرب الأوائل ، ممن نقل عنهم الطبرى والمقدسى والمسعودى قد عرفوا هذا الإسم القديم المشترك ، وذكروه فى كتبهم فى صيغة « القرماطيين » وما أشبه أن يكون تعريباً للفظ الجرمانتيين .

من المحتمل أن يكون الفاتحون من العرب الأوائل عرفوا هذه الجماعة بإسمها عندما غزوا جرمه وودان ، وربما حملوا معهم أسرى منهم إلى البلاد الإسلامية .

فإذا صح هذا أمكن القول بأن فئات من الجرمانت كانوا من جملة الجماعات التى انتقلت من أفريقية إلى العراق فى تجارة الرقيق أو غيرها ، فى عصور الإسلام المبكرة ، قبل أن يعفى الزمن على إسمهم القديم المشترك ثم ظهروا فى ثورة الزنج فى القرن الثالث الهجرى وكان لهم دور فى هذه الثورة .

---

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ — وأنظر (جرمة) فى معجم البلدان لياقوت .

أما القرماطيون (الجرمانت) فى موطنهم الأصلى، فى أفريقيا، فمن المحتمل أن سلطانهم قد استمر — كما قد يفهم من كلام المسعودى — إلى القرن الرابع الهجرى، ولعله لم يستمر كثيراً بعد زمن المسعودى. لعله كان آخذاً فى الضعف والانحلال، مع انقضاء القرن الرابع الهجرى.

وعندما أخذ مؤرخو القرون التالية، «القرن الخامس ومايليه»، يسجلون شعوب السودان الغربى وممالكهم، لم يكن للجرمانت أو القرماطيين شأن ولا سلطان فى بلادهم فأغفلوا ذكرهم.

عبد المجيد عابدين

تاريخ بنـــاء القرويين . . .

٢٤٥ - ٢٦٣ - ٣٠٦

إن كل أولئك الذين كتب لهم أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً أن ابن أبي زرع في كتابه القرطاس نقلاً عن أبي القاسم ابن جنون في تاريخه لمدينة فاس، وكذا سائر الذين حذوا حذوه من أمثال الجزنائي في زهرة الآس، وابن خلدون في تاريخه : العبر، وابن القاضي في جذوة الاقتباس وغير هؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع في حفر أساسه والأخـذ في أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ٨٥٦) بمطالعة العاهل الإدريسي يحي الأول، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله »، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه لإستسلام للشك فيها والتردد أمامها سيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعني وقت بني مرين أوائل القرن الثامن الهجري، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للادارسة، أنها لوحة منقوشة عثر عليها — عند أعمال الترميم — في البلاط الأوسط فوق قوس الحراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها — في جملة ما كتب — بخط كوفي إفريقي عتيق : « ... بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن أدريس أبقاه الله ... ونصره نصراً عزيزاً ».

وما دمنا في استعراض الآراء حول تاريخ بنـاء القرويين لابد أن نعرض لرأي ثالث الدكتور أوسكار لانز(١)، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عثر عليه

(١) Oskar Lens: Voyage au Maroc Paria 1886 Vol 2.

فوق « صفيحة فضية » مغروزة فى أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « ... بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبى ... » أى أى فى أيام ولاية يحيي الرابع ...

وحتى نرجع إلى حديث فاطمة وداود نشير إلى أن رواية الدكتور لانز لانعيرها أى وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيما مع ما حكاه عن الطالب إدريس الذى زوده بهذه الوثيقة والذى لم يكتمه أنه وجد صعوبة فى الوصول إلى بقية النقش ، الأمر الذى يقرب إلى « أساطير » السياح أكثر مما يخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق — حسابياً — يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس ... وبعد فلنرجع إلى ابن أبى زرع ، واللوحة المنبعثة ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف فى كلمة وجيزة عن عن الإمام داود بن أدريس تاركاً التفصيل للبحث الذى كنت كتبته خصيصاً عن هذه الشخصية[1] :

بالرغم من أن جميع المؤرخين بخلوا على داود هذا بأكثر من كلمة واحدة تتلخص فى أنه « لما توفى إدريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد ، وأن هـذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار أخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذى استأثر بإقليم تازة . وقد رددت سائر المصادر صدى « الفتنة » التى نشبت بين بنى إدريس على أثر هذه « الترضية » لكنهـا لم تعد بحال لذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الإسم يعد فى عداد الضائعين لولا عناصر ثلاثة :

أولها : اليعقوبى[2] الذى يذكر أن داود بن ادريس كان والياً على عدوة

---

(١) التازى ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة إبريل ١٩٦٠ — مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢ .

(٢) اليعقوبى ، أخبار البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٠ — ص ١٣٧ Blsohöra Heapêria T. 18 - 1934 Page 41 - 42 - 43.

الأندلس وأنه كان «يدافع» يحيى صاحب عدة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى.

ثانياً : الدرهم الموجود بالمكتبة الوطنية بباريز الذى يحمل اسم الإمام داود ابن ادريس[١] .

ثالثاً : هذه اللوحة الأثرية التى يحتفظ بها الآن فى المركز الرئيسى لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية .

وبعد هذا نرجع إلى الحديث ...

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟ .

لقد كنت كتبت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة فى الموضوع نشرت فى مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب[١] أو القاهرة[٢] أو تونس[٣] وأسبانيا[٤] ، وكنت قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم يساعدون على اضفاء الضوء على هذا الحقائق ، ومن سوء الحظ أننى إلى الآن لم أقف على « رد فعل » من طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التى تلقيتها من بعض الأساتذة الأجلاء الذين حرصوا على أن يجعلوا نقل القرطاس فى نجوة من الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض « تواتراً » متوارثاً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر وغرزت هنا . . . وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة التى رجع فيها النفوذ للشرفاء الأدارسة بواسطة محمد بن على الجوطلى[٥] .

---

(١) التازى — مجلة التربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٠ — ٢٠ .

(٢) مجله الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٣) التازى — مجلة الفكر — السنة الخامسة عدد ٦ مارس ١٩٦٠ .

(٤) التازى — مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد — المجلد السادس ١٩٥٨ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٥) Deverdun mèlanges d' histoire et d' Archèologie T. 11 page 72

وفى النـاس طائفة ثالثة يصممون على أن يأخذوا بما ورد فى مدلول اللوحة نظراً أولاً لـكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثر فى هفوات عن القرطاس ، وثالثاً لـكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبى والبـكرى وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لـكنهم لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذى عرف فى القرطاس ...

فماذا تـكون الحقيقة ؟ .

أما « التوصية » بنبذ اللوحة فأمر سلبى لا يسمح به المؤرخ النزيه ، وأما عن أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فإنه يبعده عندى أن التاريخ ظل صامتاً صمتاً مطلقاً عن مؤسسات داود ابن إدريس فى مناطق نفوذه فلا يمكن أن ندعى إذن أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التى كانت على ذلك المسجد هى التى نقلت! لـكن إلا بعد هو القول بأن عملية النقل تمت على عهد الوطاسيين مع أنها وجـدت تحت الجبس الذى ضرب — منذ نهاية دولة المرابطين — على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ أبداً عن إزاحة « التبليط »(١) الذى قام به فقهاء فاس أو المسؤولون فى الدولة الموحدية ، لذا فأمام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتباراً لما نقل عن اليعقوبى وعرف من أمر السكة الداودية واحتراماً لما نقل عن أبى القاسم بن حنون(٢)، وأبى محمد عبدالملك بن محمود الوراق(٣) مما تردد صداه فى الأنيس المطرب وانعكس فى زهرة الآس والعبر والجذوة ، ونظراً لأننا لم نعثر لحد الآن على نص تاريخى آخر يعزز بناء الإمام داود لجامع القرويين ،

---

(١) مجلة كلية الآداب — الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ ص ٦٠ — ٨٨ — المؤتمر الثالث للآثار العربية ، نشر الجامعة العربية صفحة ٤٤٥ — ٤٦٥ ، التـازى : جامعة القرويين فى أحد عشر قرناً ، طبعة المحمدية ص ٨ .

(٢) رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهولة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٧٢٢ ح .

(٣) مخطوط فى تاريخ الادارسة من كوبنهاجن مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

ونظراً لـكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول مراعاة لـكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

فإما أن يكون ابتداء البناء كان فى رمضان ٢٤٥ فى أيام يحيى ولـكنه استمر إلى سنة ٢٦٣ أيام داود بن إدريس وتـكون فاطمة استغرقت فى صومها كل هذه المدة ، ويؤيد هذا الرأى أولا ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف فى هـذه الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل مواد البناء من نفس البقعة تحرياً ، وثالثاً أن المصادر التاريخية إنما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم فى نفس السنة نظراً لـكون الجامع — ومساحته لا تصل إلى ألف متر مربع — لا يمكن التهاون فى أمر بنائه طيلة ثمانيـة عشر عاماً . . . ويفسر وجود داود بن إدريس هنا بأنه فى الفترة التى كان « يدافع » فيه يحيى ، تمـكن فى بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليـداً لهذا الفوز الذى حصل عليه فى عدوة القرويين ورغبة فى أن تعرف الأجيال القادمة أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكارى فى هذه الجهة ، ولما كان الملوك ، والرؤوساء يختارون أبرز مكان وأشهره لتخليـد أسمائهم ، وكان أفضل مكان فى المسجد وأظهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه « الأرزة » عليه حتى تظل أمام المتعبدين والقاصـدين . بقى أن يتسائل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

فإنا نعلم أن التقاليـد القديمة لا تلح فى ذكر أسماء النساء على المبانى سيما مع ما أثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقـديراً لهم وتـكريماً لمقامهم .

وبعد . . . فهل ستـكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟

عبد الهادى التازى